الفصل الثالث

سحر الشعر

- المبحث الأول: الممارسات السحرية في الشعر
- المبحث الثاني: الاستخدامات السحرية للشعر

المبحث الأول

الممارسات السحرية في الشعر

ارتبطت حياة الجاهليين في طورها البدائي بالسحر وممارساته، كما ذكرنا من قبل، وقد نقل الشعر القديم الكثير من المعتقدات والممارسات التي كانت سائدة عند العرب في تلك الحقبة، وهي تعكس بصورة واضحة حياتهم وقيمهم وأعرافهم وتقاليدهم وكل معتقداتهم وأفكارهم. وفي الطور البدائي لهم بالذات، وقد ارتأى توماس غرين:[١] أنّ المشترك بْين مثل هذه الممارسات أنّها تتضمّن أعمالاً ترمي إلى أهداف حيويّة وتكمن وراء كلٍّ منها مطامح ورغائب تتوسّل بالعزم السّحري إلى تحقيق ما تصبو إليه.إنّ التّراث الثّقافي العالمي والعربي والتّراث الشّعري العالمي والعربي يحظيان، في اعتقادنا بأهمّية بالغة في دراسة هذه المسألة.

يقول المناعي:[٢] فمن أهداف العمل السّحري التّحكّم في قوى الطّبيعة الخفّية والسّيطرة عليها، ومن ذلك ما كانت بعض الشّعوب تقوم به فجرًا لإعانة الشّمس على الشروق أو في أحوال الكسوف والخسوف، أو الطّقوس التي كانت تُؤدّى لإيقاظ الأرض من سباتها الشّتائّي[٣] ومن أمثلة ذلك أيضا التحكّم في المطر، و قد تحدّث ابن خلدون عمّن "يسحرون السّحاب كي يمطر الأرض المخصوصة". والملاحظ أن هذا الطّقس السّحري قديم عند العرب وعند غيرهم من الشعوب. وفي معتقدات الجاهليين أن الشياطين تتحكم بكل تلك الظواهر، فتصد الشمس عن الشروق، يقول أمية ابن أبي الصلت في ذلك:[٤]

والشـــمس تطلـــع كـــل آخـــر ليلـــة ... حمـــراء يصـــبح لونهـــا يتـــورد
تـــأبى فـــلا تبـــدو لنـــا فـــي رســـلها ... الا معذبـــــــــة والا تجلـــــــــد
لا تســـتطيع بـــأن تقصـــر ســـاعة ... وبـــذاك تـــدأب يومهـــا وتشـــرد

ويأتي ضمن هذا المعتقد ما تأتي به النجوم من الخير والشر، فهذا عبيد الأبرص يقول:[٥]

فالشـــمس طالعـــة وليـــل كاســـف ... والـــنجم تجـــري انحســـا وســـعودا

---

[١]- المناعي- السحر والشعر- ص١٤

[٢]- المصدر السابق نفسه--ص٧٧

[٣]- فريزر،جيمس -الغصن الذهبي-ترجمة محمد زياد كبة -ص٢٤٩

[٤]-أمية ديوانه- ص٥٠-٥١

[٥]-عبيد الأبرص-ديوانه-ص٦٩

فهو يؤمن بقدرة النجوم من خلال ما بها من الشياطين على الحاق الخير والشر بالإنسان.

هذه الممارسات السحرية؛ نقل الشّعر القديم منها أمثلة صالحة لدعم مانحن بصدد البحث فيه، من بينها تعليقهم الحلي والجلاجل على اللّديغ ليفيق. ويمثّله قول النّابغة الذبياني عن الأفعى:[1]

يســـهَّدُ مـــن لْيـــلِ التّمـــامِ ســـليُمها ... لَحْلْـــي الّنســـاءِ فـــي يدْيـــهِ قعـــاقِعُ

يقول المبرد في شرح البيت:[2] لأنهم كانوا يعلقون حلي النساء على الملدوغ، يزعمون أن ذلك من أسباب البرء، لأنه يسمع تقعقعها عند النوم فلا ينام فيدب السم فيه، ويسهد لذلك". فالنابغة يقول: لما أتاني وعيد أبي قابوس –وهو النعمان بن المنذر– أفزعني وأطار عني النوم، فصرت كهذا اللديغ الذي لا ينام ليلَه، والسليم في الأبيات اللديغ، سمته العرب (السليم) تفاؤلا.

وقبل ظهور الاسلام كان النفث – وهو اشد من النفخ واقل من التفل – في العقد احد ضروب السحر الذي تمارسه السواحر لقاء جعل معين يعطيه الرجل اياها للإضرار بخصمه في نفسه او ولده أو أهله. واكثر ما يكون طلب الاضرار في البدن وهو قريب مما تسميه العامة في العراق وفي مصر وبعض الدول العربية (العمل)، كان هذا الاعتقاد شائعاً في عرب الجزيرة سابقي الاسلام. قال عنترة بن شداد:[3]

فـــإن يبـــرأ فلـــم انفـــث عليـــه ... وان يفقـــد فحـــق لـــه المفقـــود

وقال متمم بن نويرة:

نفثـــت فـــي الخـــيط شـــبيه الرقـــي ... مـــن خشـــية الجنـــة والحاســـد

والعشّاق كانوا يكّررون على رُقًى يشربونها عبارات ذات "نجاعة" خاصّة كي يحظوا برضى من يحبّون.

ومن اعتقاداتهم كانوا يفقؤون عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم الألف يدفعون عنها بذلك الغارة والعْين والحسد، يقول أحد الشعراء:[4]

فقـــأت عـــين الفحيـــل عيافـــة ... وفـــيهن رعـــلاء المســـامع والحـــامي

١– ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين–شرح نهج البلاغة– ط١–ج١– ص٤٨٥

٢– المبرد،أبو العباس محمد بن يزيد –الكامل–تحقيق د.محمد أحمد الدالي–مؤسسة الرسالة–ط٣ ١٤١٨هـ. ١٩٩٧م.ص

٣– عنترة– الديوان– ص٣٤

٤–الجاحظ– الحيوان –ج١–ص١٧

وإذا وقع العر في إبل أحدهم اعترضوا بعيراً صحيحاً من تلك الإبل، فكووا مشفره وعضده وفخذه، يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العر من إبلهم، ويدل عليه قول الراجز:[1]

وكـــان شـــكر القـــوم عنـــد المـــنن كـــي الصـــحيحات وفـــقء الأعـــين

وكانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضة الكلب، ويستخدمون دماء الملوك لعلاج الكلب والخبل:[2] وكثر التعبير في اشعارهم بهذا المعتقد ونذكر منه قول المتلمس الضبعي:[3]

مـــن الـــدارميين الـــذين دمـــاؤهم شـــفاء مـــن داء المجنـــة والخبـــل

وعاصم بن القرية يقول:[4]

وداويتـــه ممـــا بـــه مـــن مجنـــة دم بـــن كهـــال والنطاســـي واقـــف

وقلدتـــه دهـــراً تميمـــة جـــده ولـــيس لشـــيء كـــاده الله صـــارف

ويؤكد ذلك قول الحصين بن حمام:[5]

بنـــاة مكـــارم وأســـاة جـــرح دمـــاؤهم مـــن الكلـــب الشـــفاء

وقال عبد الله بن الزبير الأشدي:[6]

مـــن خيـــر بيـــت علمنـــاه وأكرمـــه كانـــت دمـــاؤهم تشـــفي مـــن الكلـــب

ومن معتقدات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الأقذار عليه، كخرقة الحيض وعظام الموتى، قالوا: وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامث عظام موتى، ثم لا يراها يومه ذلك، وأنشدوا للممزق العبدي: [7]

فلـــو أن عنـــدي جـــارتين وراقيـــاً وعلـــق أنجاســـاً علـــي المعلـــق

وكان أبو مهدية يعلق في عنقه العظام والصوف حذر الموت، قالوا: والتنجيس يشفي إلا من العشق، ومنه قول أعرابي:[1]

---

[1]- البغدادي- خزانة الادب ص ٩٠٤

[2]- المصدر السابق نفسه ص٧

[3]-المتلمس- ديوانه- ص١٣٥

[4]- الجاحظ-الحيوان-ج٢- ص٧

[5]- ابن أبي الحديد-شرح نهج البلاغة- ص٤٩٩

[6]- المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها

[7]- المرجع السابق نفسه-ص ٤٩٨

يقولــــون علـــق يالـــك الخيـــر رمـــة وهــل ينفــع التنجــيس مــن كــان عاشــقا!

وقالت امرأة – وقد نجست ولدها فلم ينفعه ومات:

نجســــته لــــو ينفـــع التنجـــيس والمـــوت لا تفوتـــه النفــــوس

ويكذب تأبط شرا الكهنة والسحرة ان يدفعوا الموت:[2]

كــذب الكـــواهن والســـواحر والهنـــا أن لا وفـــاء لعــاجز لا يتقـــى

وأبو ذؤيب الهذلي لا يعتقد بالطرق أو ضرب الكاهن بالحصى:[3]

يقولــون لــي لــو كــان بالرمــل لــم يمــت نشـــيبة والكهـــان يكـــذب قيلهـــا

ويضربون الثّيران إذا امتنعت البقر عن الماء، يقولون إنّ الجنّ تركب الثّيران فتصدّ البقر عن الشرب.كقول الأعشى في تشبيه نفسه:[4]

لكـــالثّورِ والجنّـــيُّ يركـــبُ ظهـــرَه ومــا ذنبُـــه أنْ عافـــتِ المـــاءَ مَشْــرَبا

ومن ذلك قول عَوفُ بن الخَرِع:[5]

هَ جَـــوْني أنْ هَجَـــوْتُ جِبَـــال سَـــلمى كضَـــرْب الثَّـــورِ للبقـــرِ الظِّمـــاء

ومن ممارساتهم السحرية النابعة من المعتقد؛ أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها، وقال: يا شمس أبدليني بسن أحسن منها، وليجر في ظلمها ومن تخيلات العرب وخرافاتها، آياتك، أو تقول: "إياؤك "، وهما جميعاً شعاع لشمس، قال طرفة:سقته إياة الشمس، وإلى هذا الخيال أشار طرفة بن العبد بقوله:[6]

شـــادن يجلـــو إذا مـــا ابتســـمت عـــن أقـــاح كأقـــاح الرمـــل

[1] – ابن أبي الحديد–شرح نهج البلاغة– ص٤٩٩

[2] –تأبط شراً –ديوانه–ص٤٦

[3] – الهذليون– الديوان– ج١–ص٣٣

[4] – الجاحظ–الحيوان–ج١–ص١٣

[5] – المصدر السابق نفسه–والصفحة نفسها

[6] – طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– دار صعب،١٩٨٠م– ولبنان، ط ٣، ٢٠٠٢.ص٩٨

بدلتـــــه الشـــــمس مـــــن منبتـــــه   بـــــرداً أبـــــيض مصـــــقول الأشـــــر

وقال أخر:[1]

وأشـــــنعب واضـــــح عـــــذب الثنايـــــا   كـــــأن رضـــــابه صـــــافي المـــــدام

كســـته الشـــمس لونـــاً مـــن ســـناها   فـــــلاح كأنـــــه بـــــرق الغمـــــام

وكانوا ومن اعتقاداتهم أيضاً إهراق الماء على الأرض استمطاراً، فالمزارعون كانوا يهرقون الماء على الأرض لضمان نزول المطر، ويعقدون السّلْعَ والعُشَر في أذناب الثّيران ويُصعدونها في الجبال يستسقون بها السّماء.. وهذا الطقس السحري للاستسقاء وكل ما يتصل به يعد من الممارسات السحرية، سواء كان بالنيران أو بالثور أو البقر أو غيرها يعلّقون ذلك في أذنابها، ثّم تُلعج الّنار فيه يستمطرون بلهب الّنار المشّبه بسنا البرق، وقيل: يضرمون فيها الّنار وهم يصّعدونها في الجبل فُيمطَرون.. وتأدية هذا الطّقس الاستمطاريّ كانت مصحوبة بأهازيج منها المقطوعة:[2]

يَـــا كَحْـــلُ قَـــدْ أُثْقِلَـــتْ أَذْنَـــابُ البَقَـــرْ

بِسَـــلَعٍ يُعْقَـــدُ فِيهَـــا وَعُشَـــرْ

ـــلْ تَجُـــودِينَ بِبِـــرْقٍ وَمَطَـــرْ ؟

ويوجهونها نحو المغرب من دون الجهات، قال أعرابي:[3]

شـــفعنا ببيقـــور إلـــى هاطـــل الحيـــا   فلـــم يغـــن عنـــا ذاك بـــل زادنـــا جـــدبا

فعـــدنا إلـــى رب الحيـــاة فأجارنـــا   وصـــير جـــدب الأرض مـــن عنـــده خصـــبا

وقال أخر:[4]

قـــل لبنـــي نهشـــل أصـــحاب الحـــور: أتطلبـــون الغيـــث جهـــلاً بـــالبقر!

وســـلع مـــن بعـــد ذاك وعشـــر   لـــيس بـــذأ يجلـــل الأرض المطـــر

ويعتقدون أن شق أثواب الأحبة يديم العشق، فكان عشّاقهم يشقّ الواحد منهم ثوب حبيبته وتشقّ هي ثوبه كي يدوم حّبهما ولا تحول دونه الحوائل. كقول سحيم عبد بني الحسحاس:[5]

---

[1]- المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

[2]- ابن أبي الحديد-شرح نهج البلاغة-ص٥٠٥

[3]- المرجع السابق نفسه -ص٥٠٤

[4]- المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

[5]-سحيم- الديوان- دار الكتب المصرية القاهرة١٩٥٠-ص٢٩.

فكـــم قـــد شــــقّقا مــــن رداءِ محبَّـــرٍ		ومـــن ُوقـــعٍ عـــن طَفلـــةٍ غيـــر عـــانسِ
إذا شُـــ ـقّ ُبـــــرٌد شُــــقّ بــــالُبِد مثلُــــه		َوالْيـــكَ حتّـــــى كُلّنـــا غْيـــُر لاَبـــسِ
نـــروم بهـــذا الفعـــل بقيـــا علـــى الهـــوى		وإلـــف الهـــوى يغـــري بهـــذي الوســـاوس

وقال أخر:[١]

شـــــققت ردائـــــي يـــــوم برقـــــة عـــــالج		وأمكننـــــي مـــــن شـــــق برقعـــــك الســـــحقا
فمـــــا بـــــال هـــــذا الـــــود يفســـــد بيننـــــا		ويمحـــق حبـــل الوصـــل مـــا بيننـــا محقـــا!!

ومن اعتقاداتهم أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها. وروي أن عبد الله بن عمر خدرت رجله، فقيل له: ادع أحب الناس إليك، فقال: يا رسول الله. وهناك أمثلة كثيرة منها:

قول الشاعر: [٢]

علـــى أن رجلـــي لا يـــزال أمـــذلالها		مقيمـــاً بهـــا حتـــى اجيلـــك فـــي فكـــري

وقول كثير:[٣]

إذا مـــذلت رجلـــي ذكرتـــك أشـــتفي		بـــدعواك مـــن مـــذل بهـــا فيهـــون

وقول جميل:[٤]

وأنـــت لعينـــي قـــرة حـــين نلتقـــي		وذكـــرك يشـــفيني إذا خـــدرت رجلـــي

وقول امرأة:[٥]

إذا خـــدرت رجلـــي دعـــوت أبـــن مصـــعب		فـــإن قلـــت عبـــد الله أجلـــى فتورهـــا

وقول المؤمل:[٦]

والله مـــا خـــدرت رجلـــي ولا عثـــرت		إلا ذكرتـــك حتـــى يـــذهب الخـــدر

[١]- ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة-ص٥٠٣
[٢]- ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة ص٥٠٠
[٣]- ابنط طباطبا-عيار الشعر-ص٣٣
[٤]-جميل بثينة- الديوان-ص٣٦
[٥]- القالي،ابو علي- الأمالي-ص٤٠٩
[٦]- ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة ص٥٠٢

يقول بشّار:[1]

إذا خـــدِرتْ رجلـــي شَـــفيتُ بـــذكرها أذَاهـــا فـــأَهْوا باســـمها حـــين تُنكَـــبُ.

ونظير هذا الوهم أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: أري من أحبه، فإن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربه، ومن ذلك قول بشر:[2]

إذا اختلجـــت عينـــي أقـــول لعلهـــا فتـــاة بنـــي عمـــرو بهـــا العـــين تلمـــع

وقال أخر:[3]

إذا اختلجـــت عينـــي تيقنـــت أننـــي أراك وإن كـــان المـــزار بعيـــدا

وهذا الوهم باق في الناس إلى اليوم.

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا عشق ولم يسل وافرط عليه العشق، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي، وقام أخر فأحمى حديدة أو ميلاً، وكوى به بين أليتيه فيذهب عشقه فيما يزعمون. ومنه قول أعرابي:[4]

كـــويتم بـــين رانفتـــي جهـــلاً ونـــار القلـــب يضـــرمها الغـــرام

وقال أخر:[5]

شـــكوت إلـــى رفيقـــي اشـــتياقي فجـــاءاني وقـــد جمعـــا دواء

وكانت العرب تعتقد أن المرأة ذات قدرة سحرية، لذلك يخرجون النساء في الحرب، ليبلن بين الصفين، فإن ذلك في رأيهم يطفئ نار الحرب، ويقودهم الى السلم، وقد سجل الشعراء ذلك في أشعارهم، من ذلك ما يقوله الشاعر منكراً قدرة بول النساء على اطفاء نار الحرب:[6]

هيهـــات رد الخيـــل بـــالأبوال اذا غـــدت فـــي صـــور الســـعالي

وبقدرتها السحرية كانت تضرب المحبوب بالجنون، فيقفد لبه، ويتشتت عقله فيستسلم وينقاد لها حتى الموت.[1] يقول سويد ابن أبي كاهل:[2]

---

[1]-بشار- الديوان ص-٣٤

[2]- ابن ابي الحديد-شرح نهج البلاغة-ص٥٠١

[3]- المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

[4]- ابن ابي الحديد-شرح نهج البلاغة-ص٥٠٢

[5]- المصدر السابق نفسه -ص٥٠٣

[6]-الثعالبي، بلوغ الأرب -ج٣ص٤

خبلتنـــــي ثـــــم لمـــــا تشـــــفني ففـــــؤادي كـــــل أوب مـــــا اجتمـــــع
ودعتنـــــي برقاهـــــا إنهـــــا تنـــــزل الأعصـــــم منـــــرأس اليفـــــع

فهو يعترف بأثرها، ويرى أنه لم يستطع مقاومة اغرائها، أو الفكاك من أسرها.

واستخدموا السلوة وهي خرزة بيضاء شفافة، تتقع في الشراب ويسقى عليها الحزين فيسلو، ويصرف بها الإنسان عمن يحبه.[٣] وقد استخدموها في مجال العشق قال الشمردل:[٤]

ولقـــــد ســـــقيت بســـــلوة فكأنمـــــا قـــــال المـــــداوي للخيـــــال بهـــــا ازدد

ومن المعتقدات التي لها علاقة بالسحر أيضاً طقس رمي البعرة خلف المسافر لضمان عودته،إذ يقول أحد الجاهليين مخاطباً امرأته، حاثاً إياها عدم ممارسة هذا الطقس لأنه لا يفيد:[٥]

لا تقـــذفي خلفـــي إذا الركـــب اغتـــدى روثـــــة عيـــــر وحصـــــاة وتـــــرى
لـــن ينفـــع المقـــدار أســـباب الرقـــى ولا التهاويـــل علـــى جـــن الفـــلا

ويوقدون النار خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه، يقولون في دعائهم. أبعده الله واسحقه، وأوقد ناراً أثره! قال أحدهم:[٦]

صـــحوت أوقـــدت للجهـــل نـــاراً ورد عليـــك الصـــبا مـــا اســـتعارا

ومن معتقداتهم أن الغراب الأسود نذير شؤم، فكانوا يتشاءمون من الغربان ويرى بعض الباحثين أن التشاؤم من الغراب، ربما يكون منشؤه من اسمه الموحي بالغربة والفراق، من هنا كثر تشاؤمهم به واستيحاشهم من رؤيته، وأشعارهم تظهر ذلك بجلاء، كمثل: قول علقمة بن عبدة:[٧]

ومـــن تعـــرض للغربـــان يزجرهـــا علـــى ســـلامته لابـــد مشـــؤوم

---

[١]- علي، فاضل عبد الواحد- عشتار ومأساة تموز-وزارة الاعلام بغداد١٩٧٣م.-ص٢٥٢

٢- الأنباري، أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار- شرح المفصليات للمؤلف أبو العباس المفضل بن محمد الضبي -مطبعة الآباء اليسوعيين- بيروت ١٩٣٠-من ص٣٨١-٤٠٩

[٣]- علي جواد-المفصل في تاريخ العرب -ج٦-ص٧٤٢

[٤]- المصدر نفسه-ج ٣-ص٦

[٥]- النويري -نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب-ج٣-ص١٢٠

[٦]- ابن ابي الحديد-شرح نهج البلاغة-ص٥٠٢

[٧]-الاعلم الشمنتري- يوسف بن سليمان بن عيسى-اشعار الستة الجاهليين ص٥٠

وقول غيره: [1]

يبشـــــرني الغـــــراب ببـــــين أهلـــــي فقلـــــت لـــــه: كِلتُ ـــــكَ مـــــن بشـــــير

وطائفة منهم يعتقدون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصوراً في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشاً له وفي ذلك يقول بعضهم:[2]

ســـــلط المـــــوت والمنـــــون علـــــيهم فلهـــــم فـــــي صـــــدى المقـــــابر هـــــام

حتى جاء الإسلام، والعرب ترى صحة أمر الهام، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام". (أخرجه مسلم في كتاب السلام، ٢٢٢٢). وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ، ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت. [3]

ومن معتقداتهم المشهورة تعليق كعب الأرنب، قال ابن الأعرابي: قلت لزيد بن كثوة: أتقولون: إن من علق عليه كعب أرنب لم تقربه جنان الدار، ولا عمار الحي؛ قال: إي والله، ولا شيطان الخماطة ولاجار العشيرة، ولا غول القفر. وقال امرؤ القيس:[4]

أيـــــا هنـــــد لا تنكحـــــي بوهـــــة عليـــــــه عقيقتـــــــه احســـــــبا

مرســـــــعة بـــــــين أدباقـــــــه بـــــــه عســـــــم يبتغـــــــي أرنبـــــــا

ليجعـــــل فـــــي أرجلـــــه كعبهـــــا حـــــــذار المنيـــــــة أن يعطبـــــــا

يقول ابن منظور في شرح الابيات:[5] فإنه كان حمقى الأعراب في الجاهلية يعلقون كعب الأرنب في الرجل كالمعاذة، ويزعمون أن من علقه لم تضره عين ولا سحر ولا آفة، لأن الجن تمتطي الثعالب والظباء والقنافذ وتجتنب الأرانب لمكان الحيض، يقول: هو من أولئك الحمقى. والبوهة: الأحمق والمرسعة كالمعاذة، وهو أن يؤخذ سير فيخرق فيدخل فيه سير فيجعل في أرساغه، دفعا للعين. والخماطة: شجرة، والعشيرة: تصغير العشرة، وهي شجرة أيضاً .

---

[1]– الاعلم الشمنتري– يوسف بن سليمان بن عيسى–اشعار الستة الجاهليين ص٥٠

[2]– ابن ابي الحديد–شرح نهج البلاغة–ص٥٠٢

[3]–المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

[4]– ابن ابي الحديد– شرح نهج البلاغة –ص٥٥٠٤

[5]–ابن منظور –لسان العرب– مادة رسع

وعن واقعنا المعاصر فإن المرء يقف مدهوشاً أمام حجم آثار تلك المعتقدات التي تغلغلت في الشعوب حتى أصبحت جزءاً من ثقافتهم، مما يصنع مفارقة عجيبة بين تلك المعتقدات التي تطفح بها أدبّياتهم وتطغى على سلوكهم وبين التقّدم البشري والمستوى التقني والتكنولوجي الذي وصلت إليه تلك الشعوب.

لنذهب إلى بعض الدول الغربية ولننظر مثلاً كيف يتشاؤم أهلها من بعض الأرقام الفردّية خصوصاً الرقم: "ثلاثة عشر" نتيجةً لأسطورة قديمة تتحّدث عن حواريِّي نبي الله عيسى عليه السلام وأن عددهم اثنا عشر حوارياً، فانضم إليهم يهوذا الأسخريوطي وهو التلميذ الذي خان النبي وأراد تسليمه لليهود، فصاروا ثلاثة عشر، ومن يومها والناس تتشاءم من هذا الرقم ويعتقدون أنه جالبٌ للنحس، مما حدا ببعض الفنادق والمنتجعات ألا تستخدم هذا الرقم عند ترقيم الغرف، فتجد الغرفة الثانية عشرة وتليها الغرفة الرابعة عشرة، والبعض الآخر لجأ إلى ترقيم الغرف بالأرقام الزوجّية فقط حتى لا يقع فيما يحذر منه.!

أما عادة التطّير من الغراب والتشاؤم من صوته فلم تتغير أبداً، كذلك التشاؤم من بعض الطيور كطائر البوم، واعتقاد أنه مخبرٌ بالشّر، أو أنه ينعى للسامع نفسه، ولذلك نجد أن هذين الطائرين من الرموز الأساسّية التي لا غنى عنها في روايات الرعب وقصصه ومنتجاته السينمائّية.

وعلى الجانب الآخر فإن الشرق "أوسطه وأقصاه" زاخرٌ بصور التشاؤم ونماذجه البعيدة كلّ البعد عن العقلانّية والنضوج الفكريّ والفطريّ، ولا يزال العلماء والمثقفون يعانون من تأثير تلك التصّورات الباطلة على حياة الناس.

فمن ذلك أن كثيراً من الناس يمنعون دخول النساء اللاتي أصابهنّ الحيض على المرأة التي توشك على الوضع، أو حتى على النفساء!، ولو كان دخولهنّ بقصد السلام والتحّية؛ اعتقاداً منهم أن ذلك من أسباب قطع النسل أو موت الوليد.

والبعض يتشاءم جداً من رؤية القط الأسود –وليس له ذنبٌ في سواده– أو رؤية كبير السن، فإذا خرج من بيته ورأى واحداً منهما نقض عزمه وعاد إلى بيته، وبالمثل فإن بعض أصحاب المحلاّت التجارية إذا دخل عليه أعور في أّول يومه تشاءم وأغلق المحلّ اعتقاداً منه بمجانبة التوفيق له سائر يومه وليلته.!

ومن إرث الجاهلّية الذي لا يزال عالقاً في النفوس ما نسمعه من البعض إذا دخل عليه أحدٌ يكرهه، أو طرق طارقٌ بابه أو جاءه اتصال هاتفي على غير موعد إذا به يقول وعلى الفور: "خير يا طير!" لتعيد هذه الكلمة إلى الأذهان عادة زجر الطير التي كان يمارسها العرب وإن لم يقصد القائل ذلك.

ومن الأمثلة الحاضرة في الأذهان: التعامل مع بعض الظواهر الطبيعّية والأعمال الاعتيادّية باعتبارها مؤشّرات على أحداثٍ خفّية أو مستقبلّية، كالتعامل مع "طنين الأذن" وتفسيره بوجود غيبةٍ أو نميمية تستهدف صاحب الطنين، أو تفسير "الحكة في اليد اليسرى" كمؤشّر على جائحةٍ مالّية تستأصل الموارد والمدّخرات، أو اختلاج الجفن أو رمش العين بصورة لا إرادّية واعتقاد أن ذلك فأل شر على صاحبها.!

والبعض يعتقد أن فتح المقصّ وغلقه مراراً دون سبب وجيه، أنه مؤثّر على مستوى العلاقات الأسرّية وباعثُ على الكراهية والتوتّر بين أفراده، أو يعتقد أن قيام أحد الناس بالتشبيك بين أصابعه أو كسر عودٍ في مجلس عقد النكاح أنه سببٌ في فساد الزيجة، أو يظن أن العبور فوق طفلٍ صغير سببٌ في حدوث الأمراض المستعصية لاحقاً، أو أن اللعب بالمياه والتراشق بها محدثٌ للفرقة والخلاف بين الحاضرين.

ومن الغرائب أن يتشاءم البعض من سماع آيات القرآن المتضّمنة للتهديد أو التخويف والوعيد، بل وُجد من الناس من يتجّنب قراءة تلك الآيات خوفاً أن يكون من أهلها!، وتبلغ الغرابة مداها من قيام بعض السذج والحمقى بالاستقسام بالقرآن!، وصورته أن يفتح المصحف بصورة عشوائّية، فإذا وقعت عينه على آية فيها ذكر الطّيبات أو وصف الجّنة، أو غيرها من الأمور المفرحة استبشر، واعتبر أن ذلك فألاً طّيباً وأقدم على مراده، وإن أبصر آية فيها النذير أو ذكر النار أو نحوهما تشاءم وأحجم عما كان يريد، وهذا ليس ثمة فرق بينه وبين "الاستقسام بالأزلام".

المبحث الثاني

الاستخدامات السحرية للشعر

كانت بدايات الشعر –كما أسلفنا–عبارة عن أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم، يستعينون بها على حياتهم؛ فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم، كما نشأ شعر الرثاء وهو في أصله تعويذات للميت حتي يطمئن في قبره، وفي أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف؛ ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة. يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء في القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة؛ فقد كانوا يرمون الرسول في بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر، ورد عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مرارًا، وقد اوردناه في فصل سابق، وواضح أن القرآن الكريم يحكي على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين الشعر والكهانة والسحر.

وهناك أغراض شعرية ارتبطت ارتباطاً وثيقا بالسحر وممارساته، ونظمت قصائدها من أجل تحقيق غاية سحرية أو إحداث أثر سحري، والتقاليد التي رافقت أدائها تدل على أنَّ الشعراء إنما أخذوا تقليدهم هذا من السحرة –الشعراء الأوائل– ومن الكهنة، لأن السحرة والكهنة كانوا ينظمون الشعر وينشدونه على هيأة خاصة، يلبسون فيه أردية خاصة ويقفون في وضع خاص حين إنشاد الشعر، وأداء الهجاء أو المرثية إنما تدل على تداخل السحر بالأسطورة بالشعر.

ومن أبرز هذه الاغراض ذات الغاية السحرية الهجاء، فالقبائل تخشى الشعراء الهجائين بصورة خاصة لخطورة صلة الهجاء بالسحر، فكانت تكرم وفادتهم حيثما حلوا، وعاش العربي في العصر الجاهلي كما في العصور التالية، تحت كابوس القصيدة الهجائية، فليس ثمة كبرياء تقف أمام شاعر هجاء.[1] كذلك الرثاء ارتبط بالسحر لأن غايته كانت تهدئة روح الميت في قبره حتى لا تعود وتضر بالأحياء، ويرثون موتاهم إثارة لحمية القبيلة حتى تهب لثأرهم، وأيضا عادة الاستمطار ارتبطت بالسحر، فالعرب يستمطرون السماء بطقوس سحرية طلبا للخصب ومحو الجدب، ولاحياء لأرواح ألأحبة في قبورها. ويستنفرون للحرب بتعبئة نفسية عالية لإثارة الحماس وبقرع الطبول والندب

[1]– بلاشير – تاريخ الأدب العربي–ج١–ص٣٤٦

الموتى، يفاخرون بقوتهم لاثارة الرعب والخوف في قلوب أعدائهم، وكل هذه أغراض شعرية يراد بها تغيير الحال بطريقة سحرية، وقد أشبه هؤلاء الشعراء السحرة، فكانوا مكروهين لكن مرهوبي الجانب، ينبغي استرضاؤهم مهما كانت الحال وشحت الظروف.[1] وكان كلامهم كالسحر، يرفع أو يضع، ويحي أو يميت، ولأن الشعر تدفع به العظائم، وتسل به السخائم، وتخلب العقول وتسحر الألباب.[2] فقد امتلأت كتب البلاغة بأبواب وعناوين من نوع "من رفعه الشعر ومن وضعه" و"من قضى له" و"من قضى عليه و"من نفعه" و"من ضره"..[3] فالشعر كالسحر ينفع ويضر، ويؤثر مثله في السلوك البشري فيغيره تغييراً، أو قل يسحر البشر، يسخي الشحيح، ويشجع الجبان، ويلهي ويهز ويثير، واذا عضد بما يناسبه واقترنت به الالحان على اختلاف حالاتها، وما تقتضيه قوى استعجالاتها، عظم الأثر وظهرت العبر، فشجع وأقدم وسهر وقوم. وشهى وأضحك حتى ألهى، وأحزن وأبكى، وهذه قوى سحرية ومعاني بالإضافة إلى السحر حرية.[4]

فمن هذه القوى السحرية للشعر التي تمكنه من فعل هذه الأمور العظيمة ومن التأثيرات التي يحدثها في النفوس فتنقلب منقادة مذعنة إلى إرادته؛ نريد أن نقف على أهم الاستخدامات السحرية التي صرف لأجلها الشعر وقد كان ما رجوه من فعل أو أثر.

---

[1] – الأصفهاني– الأغاني ج٤ ١٠٤ وما بعدها

[2] – ابن طباطبا–عيار الشعر ص١٢٥–١٢٦

[3] – ابن رشيق– العمدة في محاسن الشعر–ج١٢٩

[4] –ابن الخطيب– لسان الدين– كتاب الشعر والسحر– ص١٠

الهجاء:

الهجاء لغة: هو الطعن بالقول، وهو اللعن أو قريب منه، وفي الحديث:[1] (اللهم ان عمرو ابن العاص هجاني فاهجه اللهم والعنه عدد ما هجاني). وكلمة قافية التي تعني الشعر لا تخلو من أبعاد سحرية، ذلك أن من معانيها "القفا"، وفي حديث مرفوع:[2](يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد، فإذا قام من الليل فتوضأ انحلت عقدة). وقفوته: ضربت قفاه. وقفاه يقفوه: رماه بأمر قبيح.[3] وهذا المعنى لا يخلو من أبعاد سحرية. واورد المناعي تحليل "والترنج" لظاهرة الهجاء لدى الشعوب القديمة وربط وجودها بصعوبات البيئة وبأنماط التعايش العنيفة في المجتمعات ذات الثقافة الشفوية، وانتهى الى ان المشاق الجسمانية المتكررة في الحياة تشرح النسبة العالية لحوادث العنف في اشكال التعبير الشفاهي.[4]

ويقول ابن جني في تفسير أصل (ك ل م)، إلى أن في الكلام معنى الكلم والكِلام أي الجرح، وعلق على ذلك قائلاً: فلما كان الكلام أكثره إلى الشر اشتق له من هذا الموضع.[5] وتمثل بقول امرئ القيس "وجرح اللسان كجرح اليد" هذه صلة الهجاء باللعن السحري.

والملاحظ اقتران الكلام باللسان، مما لم يعد يحتاج الى دليل بعد ما حلته اللسانيات من صلة بينهما، فاللسان هو اللغة وهو الكلام، واللسان في الاعتقاد السحري والشعري القديم، سلاح حاد موجع، قال ابو الدلهان:[6]

وللشعراء ألسنة حداد ... على العورات موفية دليلة

ومن حق الكريم اذا اتقاهم ... وداراهم مداراة جميلة

اذا وضعوا مكاويهم عليه ... وإن كذبوا فليس لهن حيلة

وهذا المعنى موجود في الشعر العربي متواتر عند أكثر من شاعر وفي أيما قصيدة. ويُروى أنه قيل لحسان بن ثابت، وقد أخذ في هجاء القرشيين: "لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبل"[7] وفي ذلك

[1] – ابن منظور –لسان العرب–مادة هجو
[2] -القرطبي-التفسير-ج١٩-ص٥٦
[3] – المصدر السابق نفسه مادة قفا
[4] – المناعي– الشعر والسحر –ص٨٠
[5] – الخصائص –تحقيق محمد على النجار ط٢– دار الهدى–بيروت د.ت. ص١٣–١٥
[6] – ابن رشيق– العمدة ص ٦٧
[7] –المصدر السابق نفسه ص٦٩

ما يصور مدى أثر الهجاء في نفوس العرب؛ فقد كان سلاحًا لا يقل عن أسلحتهم في القتال؛ ولذلك قرنه عبد قَيس بن خفاف البرجمي إلى ما يلقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع، يقول:[1]

فأصـــــبحتُ أعـــــددتُ للنائبـــــات   عِرْضًـــا بريئًـــا وعضـــبًا صَـــقيلا
ووقـــــع لســـــان كحـــــد السِّـــنانِ   وُرمحًـــــا طويـــــل القنـــاة عَسُـــولا
وســـــابغة مـــــن جيـــــاد الـــدروع   تســـمع للســـيف فيهـــا صَـــليلا

ولاعتقادهم أن شيطان الشاعر هو من يمج في فِيهِ الشعر، وفي ذلك أخبار متفرقة واسعة، منها أنهم إذا أسروا شاعراً، عقدوا لسانه على نسعة، حتى لا ينطلق شيطانه على لسانه مشنعاً، لاعتقادهم أن الإبل متصلة بالجن، وأن النسعة وهو حبل مظفور لرحل الناقة ولقيادتها، يظفر شيطانه أيضاً، يتهدد عبد يغوث القحطاني الحارثي فيقول:[2]

أقـــول وقـــد شـــدوا لســـاني بنســـعة   أمعشـــر تـــيم؛ أطلقـــوا عـــن لســـانيا!

وقال جرير:[3]

لســـاني وســـيفي صـــارمان كلاهمـــا   وللســـيفُ أشـــوى وقعـــةً مـــن لســـانيا

قوله أشوى إذا أخطأ المقتل.

وقال آخر:[4]

وجـــرح الســـيف تدملـــه فيبـــرى   وجـــرح الـــدّهر مـــا جـــرح اللســـانُ

فاللسان كان ينكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح. ويخيل إلى الإنسان كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف، وقد أخذ كل منهم يريش سهام هجائه ويرمي بها أعداءه من الأشراف والقبائل، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذ السهام وأصماها؛ حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة. وكانوا ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ، فينشدون

١– ضبي، محمد بن يعلي – المفضليات–تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون –– دار المعارف ط١– ١٩٧٦م. ط٦–١٩٩٤ القاهرة.–ص٢٢٠

٢– الأصفهاني –الأغاني– ج٧ص٣٤٦.

٣–النويري– نهاية الأرب في فنون الأدب–ج٢ص٧٩.

٤–المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها

أهاجيهم لتذيع، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار، يقول راشد بن شهاب اليشكري لقيس بن مسعود الشيباني:[1]

لا تُوعِدنِّي إنني إن تُلاقني معي مَشْرفِيٌّ في مضاربه قَضَمْ
وذمٌّ يُعَدُّ ى المرءِ خِزْيا ورهطه لدى السَّرحة العَشَّاء في ظلها الأَدَمْ

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ؛ حيث تقام السوق الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون في حجورهم من حجارة الهجاء. ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مثلهم التي صورناهم في غير هذا الموضع، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة، وهي تعني عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء؛ فإذا هو يخلص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهي لا تكرم الجار ولا تحميه، وهي تفر في الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها.

ومن الشعراء الهجائين من يخرج طالباً المهاجاة والسب، فقد ذكر الأصبهاني في أخبار ابن ميادة: كان ابن ميادة عريضاً للشر، طالباً مهاجاة الشعراء ومسابة الناس، وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول: "اغرنزمي مياد للقوافي" (بمعنى اشتدي واصمدي)، يريد أنه سيهجو الناس فيهجونه ويذكرون أمه.[2]

وفي أخبار الحطيئة ويقال:[3] أن سيدنا عمر أمر بحبسه في قصة هجاءه للزبرقان بن بدر، فاستعطفه بأبيات أبكت عمر رضي الله عنه عندما سمعها، فأخرجه من السجن، وأجلسه على كرسي، وأخذ بيده شفرة، وأوهم أنه يريد قطع لسانه، فضج، وقال: إني والله يا أمير المؤمنين! قد هجوت أبي وأمي وامرأتي ونفسي، فتبسم عمر، ثم قال: ما الذي قلت؟ قال: قلت لأبي:

فبئس الشيخ أنت لدى تميم وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

وقلت لأمي خاصة:

تنحي واجلسي مني بعيدًا أراح الله منك العالمينا
أغربالا إذا استودعت سرًا وكانونًا على المتحدثينا

---

[1] – الضبي– المفضليات– ص١٧٠
[2] –الأصفهاني– الأغاني–ج٢–ص٢٢٩
[3] –العسكري، ص١٢٣

وقلت لامرأتي:

أطـــوّف مـــا أطـــوف ثـــم آتـــي إلـــى بيـــت قعيدتـــه لكـــاع

وقلت لنفسي:

أبـــت شـــفتاي اليـــوم إلا تكلّمـــا بســـوء فمـــا أدرى لمـــن أنـــا قائلـــه!

أرى لـــي وجهـــا شـــوه الله خلقـــه فقـــبح مـــن وجـــهٍ وقـــبح حاملـــه

فخلى سيدنا عمر سبيله، وأخذ عليه أن لا يهجو أحدًا، وجعل له ثلاثة آلاف اشترى بها منه أعراض المسلمين، فقال يذكر نهيه إياه عن الهجاء ويتأسف :!

وأخـــذت أطـــراف الكـــلام فلـــم تـــدع شـــتّما يضـــر ولا مـــديحًا ينفـــعُ

ومنعتنـــي عـــرض البخيـــل فلـــم يخـــف شـــتمي وأصـــبح آمنـــاً

وما كانت تبرد حشاشة بعض المهجوين حتى وإن قتل الهاجي! والتاريخ في هذا طافح بدماء الشعراء الهجاة، ليس طرفة في أولهم ولا أبو الطيب في آخرهم. لذلك، كان خيراً وأبقى أن يتقي الأشراف الشعراء بإكرامهم كما كانوا يفعلون مع الأعشى خشية من أن يلوي لسانه في الهجاء.

يؤكد بروكلمان أنَّ الهجاء قبل أنْ يتحول إلى شعر السخرية والاستهزاء (كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير شعري .ومن ثم كان الشاعر إذا تهيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن).[1] وجاء في أمالي المرتضى أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حلة خاصة كحلل الكهان، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين، ودهن أحد شقي رأسه وارخى إزاره، وانتعل نعلًا واحدة، بزعمهم أنه يستمد من الجن تمتمات الأذى فيجعلها في شعره للإضرار بالمهجو! وهو اعتقاد يدعمه الحديث التالي: عن مسلم عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يمشي أحدكم في نعل واحدة فإن الشيطان يمشي في نعل واحدة).[2] وواضح أن هذا ضرب من السحر التشاكلي، يراد به احداث أثر الشعيرة العملي والقولي في المهجو.

وهذه الطقوس تدل على أنَّ فعل الهجاء لا بد أن ترافقه حركات وأفعال تؤدي إلى تأثير الفعل. إنَّ الهجاء في هذه الحالة يشبه تماماً الرقية التي يصنعها الساحر، ولابد للساحر من أداء طقوس ترافق الرقية، وبذا يتداخل الأداء الصوتي والحركة الجسمية، فالساحر من أجل ان تحدث الرقية مفعولها، يقلد سلفاً الاحتضار من المرض الذي ابتلي به الشخص المعني، فيتمرغ على

١- علي، جواد- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام٤١٤/١

٢- أمالي المرتضى-تحقيق ابي الفضل ابراهيم -ط١ دار احياء التراث العربية القاهرة ١٩٥٤-ج١ص١٩١.

الأرض، ويصيح متشنجا بشدة، وعقب تقليد دقيق لنتائجه تستطيع الرقية أنْ تفعل فعلها. يقول فيشر:[1] إن الرقى ذاتها تكاد تكون صريحة صراحة العمل الذي يرافقها... وهذه هي التعويذة التي تستخدم في إحداث مرض "الغنغوزا"، هذا المرض الوبيل الذي يفترس اللحم، مثلما يلتهم الغراب الأقرن، الذي أطلق اسمه على هذا المرض، جذوع الأشجار بمنقاره الكبير الذي يمزق كل شيء:(الغراب الأقرن، الساكن في سيغا سيغا–في قمة شجرة لوانا–يقطع، يقطع–يمزق–ابتداء من الأنف–من الصدغين–من الحلق–من الردف–من جذور اللسان–من الرقبة–من السرة–من القذال–من الكلى–من الأمعاء–إنه يمزق–ولا يكف عن التمزيق–الغراب الأقرن، الساكن توكوكو– في قمة شجرة لوانا.الضحية تنحني وتتلوى–تنحني وتمسك ظهرها–تنحني معقودة الذراعين أمامها–تنحني، ويداها على كليتيها– تنحني ورأسها بين يديها–تنحني منثنية–متأوهة، صائحة...إنها تقفز هناك–وتقفز هنا بسرعة فائقة).[2]

ومن هذا المنطلق جعلت العرب الهجاء خاصة أخا السحر، لما كان الشاعر المفلق يمارسه من طقوس إذا أراد الهجاء، ومن هذا ما جاء في خبر جرير عندما أراد هجاء التميمي، وما مارسه من طقوس سحرية حتى يتمكن من قول ناجع يبلغه غايته، بعد أن أغضبه راعي الابل وأهانه، حسب الرواية التي سبق ذكرها في مطلع الدراسة. ويقول ابن رشيق معلقا على قصيدة جرير في نمير: (وممن وضع الشعر حتى انكسر نسبه وسقط عن رتبته بنو تميم، وهذه القصيدة تسميها العرب "الفاضحة" "والدماغة" و"الدامغة" أي الضربة التي تشج الرأس حتى تصل الدماغ، وكان أثر هذه القصيدة في راعي الإبل عظيماً جداً، حتى أن ابن سلام ذكر انه توفي في العام الذي قيلت فيه).[3]

فالتأثير النفسي الشديد الذي تركه هذا البيت في النميريين شديد جداً، حتى يروي أبو عبيدة أنه: صار الرجل من بني نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر.

ومن الأبيات التي كان لها وقع السحر على من قيلت فيه، قول الأخطل في بني كليب ابن يربوع بن تميم إبان حرب الهجاء التي نشبت بينه وجرير:[4]

ما زال فينا رباطُ الخيلِ معلمة وفي كليبٍ رباطُ اللؤمِ والعارِ
قومٌ إذا استنبحَ الأضيافَ كلبهم قالوا لأمهم: بولي على النارِ

١– فيشر، ارنست –ضرورة الفن، ص ٤٠

٢– المصدر السابق نفسه

٣–القيرواني– العمدة في محاسن الشعر ص٣٦–٣٧

٤–الاخطل–الديوان– ص

وهو يتضمن وجوها شتى جعلهم بخلاء بالقرى، وجعل أمهم خادمتهم، وجعلهم يبخلون بالماء، أن يطفئوا به النار، فيأمرونها بأن تطفئها ببولها " أعزكم الله " بينهم وبين المجوس لتعظيم المجوس النار، إلى غير ذلك، وان نارهم من قلتها كانت تطفئها ببولها. قالت بنو تميم: ما هجينا بشيء هو أشد علينا من هذا البيت .

هذا من جهة الشاعر، أما من جهة الشعر، فشعر الهجاء شبيه بالسحر من حيث أنه يظهر تارة ويخفى تارات، وأشد أنواعه ما بطن بمديح وهذا أسلوب الحطيئة في هجائه حتى انه يشكل على من سمع شعره هل هو مدح أم هجاء كهجاء الحطيئة لبني العجلان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:[1]

قُبيِّـــــــــــةٌ لا يغـــــــــــدرونَ بذمـــــــــــة ولا يظلمـــــونَ الّنـــــاسَ حبـــــةَ خَـــــردل!

وهذا من أخبث الكلام، إذ يقول إنهم أهل جبن وعجز ومذلة!

وفي هجاء الزبرقان بن بدر قال:

دع المكـــــــارم لا تـــــــنهض لبغيتهـــــا واقعـــد فإنـــك أنـــت الطـــاعم الكاســـي

والهجاء شبيه بالسحر في ممارسة الشاعر للطقوس نفسها إذا أراد اللعن، ونعرف أن حلق الرأس كان من سننهم في الحج، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر،[2] فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقْرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. وفي اوقات الحرب خاصة، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة، حتى إذا ضعف الإيمان بقدرة اللعنة السحرية تطورت القصيدة الهجائية وانتقلت من دائرة التناحر بين القبائل إلى دائرة التشاحن بين الأشخاص.[3]

ومن ذلك نفهم قول حسان بن ثابت:[4]

لعـــــن الله منـــــزلاً بطـــــن كـــــوثي ورمـــــــــاه بـــــــالفقر والامعـــــــــار

---

[1] -الحطيئة- الديوان -ص ٥٤

٢- شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٩٧ .

[3] - المناعي، الشعر والسحرص٩٠(من كتاب-بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية-ص٢٩).

[4] -بشر بن ابي خازم-الديوان-تحقيق عزة حسن-وزارة الثقافة.دمشق١٩٧٢-ص٢٨٤

وبهذا نفهم قول بشر ابن ابي خازم:[1]

وكـــــان مقامنـــــا نـــــدعو علـــــيهم بـــــأبطح زي المجـــــاز لـــــه أثـــــام

وقول الفرزدق بعده:[2]

فـــإن أبـــاك كـــان كـــذاك يـــدعو علينـــا فـــي القـــديم مـــن الـــدهور

ويقول المناعي: فقد كان من وظائف الشعر الموروثة من وظائف السحر؛ أو من أهداف الشعر السحرية؛ أن يحسن أو يقبح، ومن ممارسات الشاعر المتحدرة من ممارسات الساحر أن يدعو بالخير أو الشر– وكان ذلك يجري ضمن تعاقد ضمني بينه وبين جمهوره– عرفه العرب وغير العرب–يحركه معتقد راسخ في نجاعة الشعر وقدرته على النفع والضرر، لهذا نجد في الشعر مثل قول اوس بن حجر يدعو لفضالة بن كلدة:

لا زال مســـــك وريحـــــان لـــــه ارج علـــى صـــداك بصـــافي اللـــون سلســـال

ومثل قول امرئ القيس يدعو على القبائل التي خذلته:[3]

ألا قـــــبح الله البـــــراجم كلهـــــا وجـــــدع يربوعـــــا وعقـــــر دارمـــــا

والقبائل تخشى الشعراء الهجائين بصورة خاصة لخطورة الهجاء عليهم، والغزو والنهب كان دائرًا بينهم؛ غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلًا بينها إبل لشاعر، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطروا اضطرارًا إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله.

وقد تحولوا يصبون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرهم؛ فلم يسلم منها أحد من أشرافهم، يقول الجاحظ:[4] "وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به، وفخرت به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته؛ فهجاه، ومن طلب عيبًا وجده فإن لم يجد عيبًا وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه؛ ولذلك هجي حصن بن حذيفة، وهجى زُرارة بن عُدَس وهجي عبد الله بن جُدْعان وهجي حاجب بن زُرارة؛ وإنما ذكرنا هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب

١– البطل،علي– الصورة في الشعر العربي –ص ١٩٣

٢–الفرزدق– الديوان –دار صادر–بيروت د.ت.–ص٢٤١

٣–الأصفهاني– الاغاني–ج٥ص٦٨

٤– الجاحظ–الحيوان–ج١–ص٣٦٠

عيينة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة. فإن هؤلاء وإن كانوا سادة قد كانوا يظلمون" وبمقدار ماكان في القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم؛ إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه، يقول الجاحظ أيضًا:[1] "إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد، ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء "النسل" والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات في العشائر وكثير الرؤساء في الأرحام "القبائل الكبيرة"، وكان الآخر قليل الذرء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير خَملوا أو دخلوا في غمار العرب، وغرقوا في معظم الناس، وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء، وسلموا من أن يضرب بهم المثل في قلة ونذالة؛ إذ لم يكن "منهم" شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء، وإذا تقادم الميلاد، وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهجوا ويضرب بهم المثل.

ولا يكتفي الشعراء الهجاءون بذلك؛ بل يتعرضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام، وكثيرًا ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعيٌّ في قومه زنيم. وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع في الأعراض، ومن ثم لا نعجب حين نجد شاعرًا يزعم أن النعمان بن المنذر ليس سليل المناذرة؛ إنما هو سليل صائغ بالحيرة، يقول فيه عبد قيس بن خفاف الْبُرجمي:[2]

لعن الله ثم ثَنَّى بلعن ابنَ ذا الصائغ الظلومَ الجهولا
يجمع الجيشَ ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فَتيلا

وكلمة "نقيضة" مشتقة من النقض، وهو افساد ما ابرم من عقد أو بناء، وباعتبار الهجاء وسيلة سحرية، فإن الشاعر المهجو، يضطر الى رد ما الحق به بشعر مماثل، فيكون الهجاء في هذه الحال تعويذة سحرية ويكون رد الشاعر المهجو الى خصمه بمثابة إبطال لفعل القوة الشريرة الكامنة في الهجاء.[3]

قال ابو كلبة التيمي وهو من مقلي شعراء الجاهلية، يؤنب الاعشى على مدحه بني شيبان، وكان بينه وبين الاعشى تهاج:[4]

جدعتها شاعري قوم ذوي نسب حزت انوفكما حزاً بمنشار

---

[1] – الجاحظ–الحيوان–ج١–ص٢٨٦
[2] – المصدر السابق نفسه–ص٢٨٧
[3] – ابن منظور – اللسان:مادة نقض ج٤ ٤٥٢٤
[4] – ابن قتيبة–الشعر والشعراء–ص١٤٥

أعنـــي الأصـــم واعشـــانا اذا اجتمعـــا فـــلا اســـتعانا علـــى ســـمع وابصـــار

فأجابه الأعشى لنقض هجائه وابطال أثره:[1]

ابلـــغ ابـــا كلبـــة التيمـــي مالكـــة فأنـــــت مـــــن معشـــــر والله أشـــــرار

شـــيبان تـــدفع عنـــك الحـــرب آونـــة وأنـــت تنـــبح نـــبح الكلـــب فـــي الغـــار

واشتهرت في العصر الأموي نقائض جرير والفرزدق وفيها الصلف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع، ومن نقائضهما:

يقول الفرزدق:[2]

إن الـــذي ســـمك الســـماء بنـــى لنـــا بتـــاً دعائمـــه أعـــز وأطـــولُ

بيتـــاً زُرارة محتـــبٍ بفنائـــه ومجاشـــع وأبـــو الفـــوارس نهشـــلُ

لايحتبـــي بفنـــاء بيتـــك مـــثلهم أبـــداً إذا عـــد الفعـــالُ الأفضـــلُ

فينقض جرير فخره ويلعنه بقوله:[3]

أخـــزى الـــذي ســـمك الســـماء مجاشـــعاً يبنـــى بنـــاءك فـــي الحضـــيض الأســـفَلِ

بيتـــاً يحمحـــم قيـــنكم بفنائـــهِ دنســـاً مقاعـــده خبيـــث المـــدخَلِ

ذُتـــل الزبيـــر وأنـــت عاقـــدُ حبـــوةٍ تبـــاً لحبوتـــك التـــي لـــم تحلـــلِ

وافـــاكَ غـــدُرك بـــالزبير علـــى منـــى ومجـــر جعثـــنكم بـــذات الحرمـــلِ

بـــات الفـــرزدق يســـتجير لنفســـه وعجـــان جعـــثن كـــالطريقِ الُمعمِـــلِ

ويقول الفرزدق:[4]

حُلـــلُ الُملـــوكُ لباسُـــنا فـــي أهلنـــا والســـابغاتِ إلـــى الـــوغى نتســـربلُ

فيجيبه جرير:[5]

لا تـــذكروا حلـــلَ الملـــوكِ فـــإنكم بعـــد الزبيـــرِ كحـــائضٍ لـــم تغْسِـــلِ

---

[1] – ابن قتيبة–الشعر والشعراء–ص١٤٥

[2] – الفرزدق – الديون – ص–٦٣٤.

[3] – جرير – الديوان–دار صادر د.ت. ص٣٨٩

[4] – الفرزدق – الديوان – ص– ٦٣٥.

[5] – جرير – الديوان – ص٣٨٩

ويقول الفرزدق:[1]

أحلامنـــا تـــزن الجبـــال رزانـــةً ،وتخالُنــــــا جنًــــــا إذا مانجهـــــــلُ
أنــــا لنضــــرب رأس كـــل قبيلـــةٍ وأبـــــوك خلـــــف أتانــــــه يتقمـــــلُ

فيجيبه جرير:[2]

بلـــغ بنـــي وقبـــانَ أن حلـــوَمهُ م خَفـــتْ فـــلا يزنـــونَ حَبـــةَ خـــردَلِ

وفي امر النبي (صلى الله عليه وسلم) لحسان ابن ثابت ان يهجي الكفار أمر عجيب، ولعله حين قال له اهجهم، وجبريل معك! كان ينزع عن حسان أن يتقول في هجائه قريشاً فرية وباطلاً حين يقول: [3]

عـــــدمنا خيلنـــــا إن لـــــم تروهـــــا تثيـــــر النقـــــع موعـــــدها كـــــداء
ينــــــازعن الأعنـــــــة مصـــــــغيات علـــــى أكتافهـــــا الأســـــل الظمـــــاء
تظـــــــل جيادنـــــــا متمطـــــــرات يلطمهـــــــن بـــــــالخمر النســـــــاء!

وهذا كله قبل فتح مكة بزمن، فلما كان الفتح أغارت خيل المسلمين من أربعة مواضع فيها كداءٍ، مثيرة النقع وهو الغبار، وخرجت نساء مكة يضربن الخيول بالخمر، فتبسم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يقول لأبي بكر حوله: كيف يقول حسان، فيقول الصديق يقول يا رسول الله:

تظـــــــل جيادنـــــــا متمطـــــــرات تلطمهـــــــن بـــــــالخمر النســـــــاء

قال: صدق! وصدق صلى الله عليه وآله وسلم.

[1] – الفرزدق – الديوان – ص-٦٣٥
[2] – جرير – الديوان – ص٣٨٩
[3] –حسان بن ثابت–الديوان–ص١

الرثاء:

لم يكن الرثاء بعيداً عن أجواء السحر، بل لعله يتنفس في أجواء السحر أكثر من الهجاء، لأنَّ الغاية من المرثية (انْ تطفئ غضب الميت، وتنهاه أن يرجع إلى الحياة فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين).[١] فالرثاء يعد عملية سحرية في أساسها وهدفها، وهي في الأصل رقى وتعازيم، يمكن بواسطتها التخلص من الحزن والياس، وتخطي حاجز الخوف والقلق،[٢] فالشاعر والساحر كل منهما بمقام الوسيط بين أمته والعوالم غير المنظورة، فكل منهما يحقق بمواهبه ما ينحبس من رغائب أمته. وهذا ما ذهب إليه بروكلمان، من أن شعر الرثاء كان ذا غاية سحرية في أصل نشأته، إذ كان يكمل الطقوس الجنائزية التي يقصد منها أن تهدأ روح الميت وأن يستقر في قبره، وأكد المشتغلون بأمر السحر من الباحثين أن الساحر يبدأ عمله بإرجاع الطمأنينة إلى أتباعه ومريديه.[٣]

وقد أسهمت المرأة في النواح والبكاء مع طقوس سحرية ترافق ذلك، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن والنعال والجلود وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام، ولعل في حلق رءوسهن من مظاهر سحرية ما يجمع بينهن وبين الهجائين، وفيه ما يشهد بأن هذا الرثاء إنما تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحده.

ونجد في شعر الرثاء عموما ما يحقق مبدأ السحر التشاكلي كما يقول المناعي:[٤] إنّ السحر البدائي قام على فكرة إمكانّية السيطرة على الواقع عن طريق خلق الإيهام بالسيطرة عليه (لذلك) فإنّ الصّيادين الذين كانت الحركات الإيمائّية الطقوسّية تشحذ هممهم كانوا بالفعل أمهر ممّن سبقهم" والمبدأ نفسه يوجد في عموم شعر الرّثاء، وبالذات في شعر الاستسقاء لقبور الأحبة الذي اقترن بغاية الإحياء، او بتهدئة روح الميت،ويمثّله خير تمثيل قول الابيرد الرياحي:[٥]

سقى جدثا لو استطيع سقيته بأود فرواه الروافد والقطر

ولا زال يرعى من بلاد ثوى بها نبات إذا صاب الربيع بها نضر

وقول متّمم بن نويرة (ت. ٣٠ هـ) في رثاء أخيه مالك وقد قُتل في حروب الرّدّة:[٦]

---

[١]- بلاشير-تاريخ الادب العربي- -١ص١٠٧

[٢]- ادونيس- مقدمة الشعرالعربي -ط٤-دار العودة-بيروت-١٩٨٣م. ص٤٩

[٣]- المناعي-ص٨٦ من كتاب (J.A. Rony;Lamagic)

[٤]- المناعي- السحر والشعر- ص ٧٩

[٥]- الأصفهاني- الأغاني- ج٥ ص١٣٧

[٦]-متمم بن نويرة- الديوان-دار صادر-د.ت.-ص١٤

سـقى الله ارضـا حلهـا قبـر مالـك ذهـاب الغـوادي المـدجنات فامرعـا

ومن علامات أثر السّحر في شعر الرّثاء أيضاً وجود ظاهرة التكرار في المراثي، تكرار ألفاظ بعينها أحيانا أو تكرار وحدة نغمية بألفاظ متقاربة في الجرس أحيانا أخرى. والتكرار في حدّ ذاته – وقد رأينا أهّميته في غير هذا الفصل وفي غير شعر الرّثاء ولكّنها فيه أوضح – وسيلة من الوسائل السّحرية التي تعتمد على تأثير الكلمة المكّررة في إحداث ذ تيجة معّينة في العمل السّحري والشّعائري، ,ومما يصلح لتجسيم هذه الظاهرة في المراثي القديمة ما في قصيدة المهلهل بن ربيعة من كلام طويل يكرر فيه الشاعر نفس التعبير الصيغي تسعة أبيات لا تتغير فيها إلا العبارة الأخيرة من كل بيت، نجزتزئ منها قوله:[1]

علـى أن لـيس عـدلا مـن كليـب إذا رجـف العضـاه مـن الـذبور
علـى أن لـيس عـدلا مـن كليـب إذا طـرد اليتـيم عـن الجـذور
علـى أن لـيس عـدلا مـن كليـب غـداة بلابـل الأمـر الكبيـر

ومن المخضرمين الخنساء في رثاء أخيها صخر:[2]

تبكـي خنـاس هـي العبـرى و قـد ولهـت و دونـه مـن جديـد التـرب أسـتار
تبكـي خنـاس فمـا تنفـك مـا عمـرت لهـا عليـه رنـينٌ و هـي مفتـار
تبكـي خنـاس علـى صـخرٍ و حـق لهـا إذ رابهـا الـدهر إن الـدهر ضـرار

إلى ان تقول:

وإن صـخراً لوالينـا و سـيدنا وإن صـخراً إذا نشـتو لنحـار
وإن صـخراً لمقـدّام إذا ركبـوا وإن صـخراً إذا جـاعوا لعقـار
وإن صـخراً لتـأتم الهـداة بـه كأنـه علـمٌ فـي رأسـه نـار

ومن شعر القرن الأول ما نسب إلى قيس بن الملوح في رثاء صاحبته ليلى:[3]

أيـا قبـر ليلـى لـو شـهدناك أعولـت عليـك نسـاء مـن فصـيح ومـن عجـم
ويـا قبـر ليلـى أكـرمن محلهـا يكـن لـك مـا عشـنا علينـا بهـا نعـم
ويـا قبـر ليلـى إن ليلـى غريبـة بأرضـك لا خـال لـديها ولا ابـن عـم

[1]– جاد المولى، محمد أحمد وآخرون– أيام العرب في الجاهلية ص١٥٧
٢– الخنساء– الديوان– دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت . ١٩٨٦م.ص٣٠
[3]–المجنون، الديوان– ص٢٥٥

ويـــا قبـــر ليلـــى مـــا تضـــمن قبلهـــا شـــبيها بليلـــى ذا عفـــاف وذا كـــرم

وكذلك ما جاء في لامية مروان بن ابي حفصة (في القرن الثاني) في رثاء معن ابن زائدة التي يقول فيها:[1]

فلهـــف أبـــي عليـــك إذا العطايـــا جعلـــن منـــى كـــواذب واعـــتلالا
ولهـــف أبـــي عليـــك إذا الأســـارى شـــكو حلقـــا بأســـوقهم ثقـــالا
ولهـــف أبـــي عليـــك إذا اليتـــامى غـــدو شـــعثا كـــأن بهـــم ســـلالا
ولهـــف أبـــي عليـــك إذا المواشـــي قـــرت جـــدبا تمـــات بـــه هـــزالا
ولهـــف أبـــي عليـــك إذا لكـــل هيجـــا لهـــا تلقـــي حواملهـــا الســـخالا
ولهـــف أبـــي عليـــك إذا القـــوافي لمتـــدح بهـــا ذهبـــت ضـــلالا

وفي شعر التعديد على الموتى يتشكل النص الشعري وينبني على صيغ لفظية متشابهة أو ماثلة، تتوارد على المتكلم فيرددها على هيئة تنبهنا الى انه ينيط بها بها اثراً معيناً ويحاول بتكرارها ضمان حدوث ذلك الأثر، والتأكد من من استنفادة قدرة الكلام كلها لإحداث ذلك الأثر.[2] ومما يجسم هذه الفكرة ويدل عليها قول أميمة بنت عبد شمس تبكي اقاربها في حرب الفجار في الجاهلية:[3]

فـــإن أبكـــي فهـــم عـــزي وهـــم ركنـــي وهـــم منكـــب
وهـــم أصـــلي وهـــم فرعـــي وهـــم نســـبي اذا انســـب
وهـــم مجـــدي ومهـــم شـــرفي وهـــم حصـــني اذا ارهـــب
وهـــم رمحـــي وهـــم ترســـي وهـــم ســـيفي اذا اغضـــب
فكـــم مـــن قاتـــل مـــنهم إذا مـــا قـــال لـــم يكـــذب
وكـــم مـــن نـــاطق فـــيهم خطيـــب مصـــقع معـــرب
وكـــم مـــن فـــارس مـــنهم كمـــي معلـــم محـــرب
وكممـــن جحفـــل فـــيهم عظـــيم الثـــأر والموكـــب

ويجسم الهاجس نفسه كما ذكر المناعي، قول الحارث بن عباد البكري، وقد كان اعتزل حرب البسوس وأراد الحياد ترفعاً، ولكن تغلباً قتلت ولده بجير ثأراً بكليب أخي المهلهل بن ربيعة،

---

[1] –عوان، حسين– شعر مروان بن ابي حفصة–ط دار المعارف المصرية القاهرة١٩٧٣ ص٦٤

[2] –المناعي– الشعر والسحر –ص٤٩

[3] – الأصفهاني– الأغاني–ج٦ ص٨٠

فغضب الحارث ودعا بفرسه –وكانت تسمى النعامة– فجز ناصيتها وهلب ذنبها، وهذا من الاحتياطات السحرية أيضاً ثم قال في قصيدة طويلة كرر فيها صيغة البداية حوالي عشرين مرة وقد سبق ذكرها:[1]

قربـــــا مـــــربط النعامـــــة منـــــي لقحـــت حـــرب وائـــل عـــن حيـــال

قربـــــا مـــــربط النعامـــــة منـــــي لـــيس قـــولي يـــراد لكـــن فعـــالي

ويقول المناعي:[2] يهمنا كثيرا ما جاء في البيت الثاني"ليس قولي يراد لكن فعالي" لأنه قابل النفوذ الفاعل للكلام، أو تضمن عمل القول للفعل، كما تهمنا وظيفة التكرار النوعية في هذا السياق وهي التركيز الحا على الثأر واستنفار كامل الطاقة، طاقة الفارس وطاقة الفرس، وطاقة الأداء الحربي المسلح بأكمل أدواته لانجاز حدث الثأر.

ومراسم الندب ومظاهر التفجع على الموتى في الشعر العربي القديم تفي برغبة الأحياء في الاتصال بالميت، فالعبارة التي تتواتر في هذا الشعر "لا تبعد" التي نجدها في قول الحصين بن الحمام المري:

فـــلا تبعـــد نعـــيم فكـــل حـــي ســـيلقى مـــن صـــروف الـــدهر حينـــا

يقول المناعي قد تكون اعتبرت في الاصل وسيلة الاتحاد بروح الميت وبحثا عن التأكد من حماية روحه للقبيلة كقول مالك بن الريب: [3]

يقولـــون لا تبعـــد وهـــم يـــدفنونني وايـــن مكـــان البعـــد الا مكانيـــا

ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من "التعديد" الذي نعرفه في بلادنا، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبها، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحاكيها نائحة أباها. وفي هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يكن يندبن موتاهن يومًا أو أيامًا، بل كن يطلن ذلك إلى سنين، ويقال: إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود، وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام. ولعل في حلق رءوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين كما أسلفنا القول، وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحده.

---

[1]– جاد المولى،محمد احمد وآخرون– أيام العرب في الجاهلية–المكتبة العصرية–بيروت ١٩٤٢ ص١٦٢

[2]– المناعي– الشعر والسحر ص٥٠

[3]– الالوسي– بلوغ الارب–ص١٥

وبمرور الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم؛ فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحًا وندبًا حارًّا.

وقد ذهبوا يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد؛ فالموت كأس دائرة على الجميع، ولا مردّ لحكم القضاء.وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء؛ فكن يشققن جيبوبهن عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتمًا من العويل والبكاء، ومن خير ما يصور ذلك كتاب "مراثي شواعر العرب"؛ والخنساء أشهرهن من دون منازع فقد قُتل أخوها معاوية في بعض المعارك، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه، وقتل أيضًا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة، ومن رائع ما ندبت به صخرًا:[1]

قذى بعينك أم بالعين عُوَّار ... أم ذرفت أن خلت من أهلها الدار
كأن عيني لذكراه إذا خطرت ... فيضٌ يسيل على الخدين مدرار
فالعين تبكي على صخر وحق لها ... ودونه من جديد الأرض أستار
تبكي خناس وما تنفك ما عمرت ... لها عليه رنين وهي مفتار
وإن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحس داعي الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن، ثم لحده ودفنه، وتنسَبُ للممزق العبدي أو ليزيد بن الخذاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذي ينتظره، يقول فيها:[2]

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حمام الموت من راقِ
قد رجَّلوني وما رجلت من شعث ... وألبسوني ثيابًا غير أخلاق
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبًا ... ليسندوا في ضريح التربِ أطباقي

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب؛ بل فسحوا في مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم، فخرًا بهم واعتزازًا بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم، وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضًا عطرة، ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حجر لفضالة بن كَلَدة الأسدي، وفيها يقول:[3]

---

[1] – الخنساء– الديوان–.ص٣٠

[2] –الضبي–المفضليات–ص١٦٤

[3] – أوس بن حجر، الديوان،بيروت،دارصادر،١٩٦٧م –ص٣١

يَّدُهـــــا الـــــنفسُ أَجْمِلـــــي جَزَعَـــــا إن الـــــذي تحـــــذرين قـــــد وقعـــــا

إن الـــذي جمــــع الســـماحة والنَّجـــدة والحـــــــزم والقـــــــوى جُمعــــــا

الألمعـــيّ الـــذي يظـــن لـــك الظـــن كـــأن قـــد رأى وقـــد ســـمعا

المخلـــف المتلـــف المـــرزَّأ لـــم مُتـــع بضـــعف ولـــم يمـــت طِبَعـــا

وكانوا أحيانًا حين يذكرون المَوتَ يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك وعلى هذا النحو ألمَّ الشاعر الجاهلي بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء، وكان رثاؤه غالًبا يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان، ومن هذا القبيل قصيدة أصمعية لأبي دؤاد الإيادي يرثي فيها من أُوَدى من شباب قبيلته وكهولهم، ونراه يقول في مطلع رثائهم:[1]

لا أَعــد الإقتــار عــدمًا ولكــن فقــد مــن قــد رُزِئتُــه الإعــدامُ

ويستمر يبكي فيهم الرءوس العظام وخلالهم من التأني والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسد، وما يخلط فرط حدتهم من أحلام وعقول راجحة، ويقول: إنهم أصبحوا هامًا وصدَى؛ إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصدى ما يزال يقول اسقوني:[2]

سُـلِّطَ الـدهرُ والمَنُـونُ علـيهم فلهـم فـي صَـدَى المقـابر هـامُ

فعلـى إثـرهم تسـاقط نفسـي حسـراتٍ وذكـرهم لـي سَـقام

---

[1] –الأصفهاني–الأغاني–ج١–ص ٥٢٥

[2] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

الحماسة:

معنى الحماسة كما جاء في اللسان مادة "حمس"، حيث يقال حمس الشر: اشتدّ وكذلك حمش واحتمش، واحتمس الديكان واحتمشا، واحتمس القرنان واقتتلا.[1] ومادة (ح.م.س) الرّجل الشجاع، والسنة الحمساء أي شديدة بها الشجاعة.[2]

ويعد شعر الحماسة والفخر من أول فنون الأدب تأثيرًا على فطرة الإنسان، والانسان في خلقه الفن؛ اكتشف وسيلة حقيقية لزيادة قدرته، وإغناء حياته. كما اسلفنا بذكر قول فيشر: أن الرقصات القبلية الشديدة الاحتدام، قبل الصيد، أدت إلى زيادة شعور القبيلة بقوتها فعلاً؛ كما أن رسوم الحرب وصيحاتها كانت وما زالت تؤدي فعلاً إلى زيادة المحارب عزماً وتبث الذعر في العدو.[3] فالشعر الحماسي يلهب الاحاسيس والمشاعر ويدفع دفعا الى خوض غمار الحروب، ويحدث أثراً بالغاً في نفوس المحاربين، ويمنحهم الشعور بالقوة، وينزع الخوف من قلوبهم نزعاً، فيقدمون لا يلوون على شيء ولا يقبلون بغير النصرة تحقيقاً للمفاخر التي يذكرهم بها الشاعر بالقبيلة ومفاخرها وشدة رجالها وشجاعتهم، ويكون الحماس بتعداد الصفات الكريمة لمن يفخر وتحسين السيئات منها.. ونراه يرتبط بالشجاعة، والكرم، والوفاء، والحلم، وعراقة الأصل، وحماية الجار والنزيل، ومنع الحريم.. والفخر من نتاج العاطفة الجياشة الصادقة، والانفعال القوي. ومن هنا لا يلتزم الفخر بالحقائق التاريخية، بل يعمد إلى المبالغة والتهويل، وإطلاق الخيال الخصيب.. وتنطلق فيه الألفاظ والعبارات موافقة له، مطابقة لمقتضى حاله، مشتدة بشدته.

وما يدفعهم لهذه الحروب، قسوة الحياة وشدة مخاطرها بالنسبة لهم.. فهنا يرتحل العربي من مكان إلى آخر طلبًا للماء، وانتجاعًا للكلأ، ولا يحصل عليهما إلا بعناء ومشقة، فإذا جاء غريب وزاحمه فيهما كان هناك الكر والفر، والجلاد والصراع، ثم بعد ذلك الثأر، ولقاء الأبطال بالأبطال، ولقاء الكلمات بالكلمات.كذلك نرى البدوي شديد الحفاظ على الشرف وعلى الجار، فإن تعدى عليهما معتد أوقد نار الحرب والقتال، وأذكى بذلك القرائح، وفاض الشعر هدارًا. من ذلك نرى أن كل ما كان داعيًا إلى إثارة الحرب كان بدوره داعيًا لقول شعر الحماسة. وكانت هناك أيام العرب (وما أكثرها) من أهم أسباب الشعر الحماسي.

---

[1] – ابن منظور : لسان العرب.–ج٦ – دار صادر –بيروت ط١ – د.ت.مادة حمس

[2] – الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين – ج١– ص: ٢٠١– موقع الورّاق

[3] – فيشر – ضرورة الفن– ص٤٣

وفي هذا الشعر تصوير للمعارك حية نابضة بأبطالها وخيلها وسيوفها وأناشيدها، ووصف لأبطالها بالشدة والشجاعة والبأس ورجاحة العقل في الكر والفر، والحيلة في مواقف الشدة، والعف عند المغنم.. كل ذلك في دقة وحسن تصوير، وصادق عاطفة.

وإننا نجد أن الأخلاق والعادات التي فخر بها العربي كانت ثمرة ونتاجًا للبيئة التي عاش فيها. ومن وحيها.. فخروا بالشجاعة؛ لأنهم في قسوة الحياة وشدتها عليهم لا تقيهم غير السواعد القوية والقلب الجريء.كذلك فخروا بالبذل والعطاء؛ لأن حياتهم معرضة لقسوة السماء والأرض، فكان للكرم أثره الشديد بينهم.ومالوا إلى الحلم والإباء والشرف، وتغنوا بإبائهم وترفعهم عن الدنيا؛ لأن حياة البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة.. كذلك تمسكوا بكلمة الشرف قانونًا لحياتهم. وكان الوفاء عندهم من أقدس الأمور نظرًا لحياة التنقل والارتحال، وتغنوا بالفروسية؛ لأن فيها حماية للبائسين ونجدة للمستضعفين.

كان هناك الفخر الذاتي، وفيه يفخر الشاعر بنفسه، قاصرًا فخره عليها، غير ملتفت لسواه. وكان هذا النوع من الفخر كثيرًا جدًا، وقد نبت تلقائيًا من نفوس تهوى العزة، وتعشق المجد.. وكانت أسواق العرب مثل سوق (عكاظ) تبسط أمامهم ميادين القول والمفاخرة.. كذلك كانت لهم مجالسهم يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار، ومبادلة الأخبار.. والشاعر لسانهم والذائد عنهم، والشعر ديوانهم، وكان البيت يرفع القبيلة، ويشيد بذكرها، ويعلي من شأنها، كذلك كان الشعر، وكان الشاعر، وكانت الأسواق والمجالس.

وإلى جانب الفخر الذاتي وُجد الفخر الاجتماعي.. وفيه يتغنى الشاعر بأمجاد قومه، ويشيد بمنعتهم وعزتهم، ويسجل مفاخرهم مباهيًا بها. ومثله فخر "المرقش الأكبر" فهو يفخر بقومه وسبقهم إلى تحقيق الغايات المحمودة الكريمة.. فهم جميعًا أبطال كرام، متفردون، ذوو مروءة.. يقول:[1]

إنـــا لُنـــرخص يـــوم الـــروع أنفســـنا ولـــو نســـام بهـــا فـــي الأمـــن أغلينـــا
شـــعثٌ مفارقنـــا، تغلـــي مراجلنـــا نأســـو بأموالنـــا آثـــار أيـــدينا
ونركـــب الكُـــره أحيانًـــا فيفرجـــه عنـــا الحفـــاظ وأســـياف تواتينـــا

فالمرقش لا يلتفت إلى نفسه، وإنما يتغنى بأمجاد قبيلته، ويعدد مفاخرها، وهو فرد منها، يناله ما ينالها. ومثل هذا الفخر الاجتماعي عاددة هو ما يستخدم في الحماسة والاستنفار للحروب، لأن التغني بمكارم المجموعة هو ما يؤثر في النفوس ويجعلها تتمثل هذه القيم المنشودة.

[1]-المرقش الأكبر-الديوان-دار صادر بيروت-د.ت-ص٢٣

ومن وظائف الشعر السحرية إلهاب الحماس في المحاربين حتى يهبوا للقتال، ويتم ذلك بواسطة أجراءات هادفة للنجاعة، يحشدها الشاعر ويكثفها حتى تبلغه غايته، منها التكرار في هذا السياق وفيه تركيز حاد على الثأر واستنفار كامل الطاقة، طاقة الفارس وطاقة الفرس، وطاقة الأداء الحربي المسلح بأكمل أدواته لانجاز حدث الثأر.

وفي معلقة عمرو بن كلثوم مثال بارز يضطلع من خلاله التكرار بوظيفة الاستنفار الشعري المتأثر بالاستنفار السحري في مقام التعبئة العسكرية، والتعزيم على الجماعة لحفز كامل الطاقة الحربية الكامنة فيها، من خلال التكرار الصيغي الهادف الى حمل الفوار على التماهي مع الكلام المقول فيهم وحمل الفعل على الامتثال للقول.[1]

وَنوجَدُ نَحنُ أَمنَعهُم ذِماراً	وأَوفاهُم إِذا عَقَدوا يَميناً
وَنحنُ غَداةَ أُوقِدَ في خَزازى	رَفَدنا فَوقَ رِفدِ الرافِدينا
وَنَحنُ الحابِسونَ بِذي أُراطى	تَسُفُّ الجِلَّةُ الخورُ الدَرينا
وَنحنُ الحاكِمونَ إِذا أُطِعنا	وَنَحنُ العازِمونَ إِذا عُصينا
وَنَحنُ التارِكونَ لِما سَخِطنا	وَنَحنُ الآخِذونَ لِما رَضينا

ولعل المدائح والمفاخر وتعدد الخصال الحميدة ومظاهر النجاح في الاعمال والاسفار والصيد والغزو تنصاع لهذا الحكم الذي يحاول البحث عن صلات قديمة بين السحر والشعر في مستوى الاهداف والغايات، فقد يكون الباعث في الأساطير البطولية سحريا في أساسه ومبدئه. فتكون المفاخرة- الاشادة بفضائل القبيلة- عملا هدفه جلب الفأل والنجاح، فطالما مثل الانسان ورقص وتغنى بأعمال وانجازات كبرى لا لأنها وقعت بالفعل، بل من أجل ان تقع ومن أجل ان تتغلب الجماعة على العدو وعلى الجوع والأوبئة والاحزان.[2]

وبذلك تكون عملية سرد المآثر نفسها شعراً عملية سحرية في هدفها وأساسها، فما أصبح قصائد قد يكون في الأصل رقى وتعازيم، ذلك لأن السحر يمكن الانسان من ان يتخلص من الحزن واليأس، ويتخطى الخوف والقلق، وهو يواجه أعمالاً نجاحها غير مضمون، ويظهرغالباً عندما تكون نتائج العمل البشري هزيلة متعثرة، وكذا الشعر يأتي لسد ضعف الذات وانهاء نقص العالم.

[1] - عمرو بن كلثوم- الديوان ص٣٨.

[2] - والترونج -الشفاهية والكتابية- تعريب حسن البنا عز الدين -الكويت ١٩٩٤ ص١٠٨-١٠٩ (المناعي- ٨٠)

والرثاء من الموضوعات التي تتصل اتصالًا واضحًا بالحماسة؛ فقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم، فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم. وكان يشارك الرجال في ذلك النساء، فقد كن ما يزلن يَنُحْنَ على القتيل حتى تثأر القبيلة له.

لم يكن عند قبائل العرب المتبديةجيوش منتظمة؛ ولكن جميع أفراد القبيلة شيوخاً وشباباً كانوا يلبون نداء القبيلة عندما يستنفرهم رئيسها؛ لأنهم يندفعون في ذلك وراء العصبية فقد كان حب القتال مغروساً في نفوس العرب في الجاهلية حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة عن طريق البغي والبطش والمبادرة بالعدوان ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن طريق هذا، ويقول عمر بن كلثوم: [1]

إذا مـــا الملـــك ســـام النـــاس خســـفا — أبينـــــا أن نقـــــر الـــــذل فينــــــا
لنـــا الـــدنيا ومـــن أمـــس عليهـــا — ونـــبطش حـــين نـــبطش قادرينـــا
بغـــاة ظالمينـــا ومـــا ظلمنـــا — ولكنـــا ســـنبدأ ظالمينـــا

وقد ذهب العرب في الجاهلية إلى اعتبار أن الظلم والبغي الطريق الوحيد الذي يصل المرء بواسطته إلى الحق فالحق هو القوة أو الحق إلى جانب القوة ويقول شاعرهم: [2]

ومـــن لا يـــذد عـــن حوضـــه بســـلاحه — يهـــدم ومـــن لا يظلـــم النـــاس يظلـــم

وفى سبيل الوصول إلى الحق والقوة والسيطرة استطاب العربي الجاهلي الموت في ساحة الوغى وازدرى الموت حتف الأنف، وأنف منه، فالميتة الكريمة هو أن يموت الرجل في ميدان الحرب ويقول عمرو بن كلثوم. [3]

معـــاذ الإلـــه أن تنـــوح نســـاؤنا — علـــى هالـــك أو نضـــج مـــن القتـــل
قـــراع الســـيوف بالســـيوف أحلنـــا — بـــأرض بـــراح ذي أراك وذي أثـــل

وكانت حياة العربي الجاهلي غير مستقرة من هذا الجانب فهو دائم التأهب للحرب أما في طلب الثأر لنفسه أو توقعاً منه يقول دريد بن الصمة: [4]

---

[1]- السيد عبد العزيز سالم – تاريخ العرب قبل الإسلام- الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٠ م ص ٣٦٤ .

[2]-المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها

٣- الألوسي، محمود شكري - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب- الجزء الأول ص١٣٣ .

[4]- الحوفى، أحمد محمد - الحياة العربية من الشعر الجاهلي- القاهرة ١٩٥٦ ص٢٥٨.

آبـــى القتـــل إلا آل صـــمه أنهـــم أبـــوا غيـــره والقـــدر يجـــرى إلـــى القـــدر
فأمـــا ترينـــا لا تـــزال دماؤنـــا لـــدى واتـــر يســـعى بهـــا آخـــر الـــدهر
فإنـــا للحـــم الســـيف غيـــر نكيـــره ونحلمـــه أحيانـــاً ولـــيس بـــذي نكـــر
يغـــادر علينـــا واتـــرين فيشـــتقى منـــا إن أصـــبنا أو نغيـــر علـــى وتـــر
قســـمنا بـــذاك الـــدهر شـــطرين بيننـــا فمـــا ينقضـــي إلا ونحـــن علـــى شـــطر

هكذا رأي العربي بفطرته أن خوض غمار الحروب هو حماية أولاً للحرية التي جبل عليها نفسه،و ثانياً دفاعاً عن خلة الوفاء التي ارتضاها لنفسه شريعة تنظم معاملاته الخاصة والعامة وردعاً ثالثاً لرزيلة الغدر التي اعتبرها أخطر آفة تهدم المجتمعات البشرية وتحرمها نعمه الطمأنينة.

وكانت النساء يشاركن الرجال في الحرب لبعث الحمية والحماسة في قلوب الرجال ولهم دور كبير ومؤثر في ذلك، كما فعلت نساء شيبان وبكر بن وائل وعجل في يوم ذي قار فأنشدن:[1]

إن يظفـــروا يحـــرزوا فينـــا الغـــزل أيهـــا فـــداء لكـــم بنـــى عجـــل

وأنشدت ابنة القرين الشيبانية تحث قومها الاستبسال:[2]

وهـا بنـي شـيبان صـفاً بعـد صـف أن تهزمـــوا يصـــبغوا فينـــا القلـــف

ويوم فيف الريح حملت "مذجج" معها النساء والذراري حتى لا يفر الرجال من المعركة،[3] ويقول عمرو بن كلثوم واصفاً خروج النساء إلى المعركة وأخذهن عليهم عهدًا ألا يفروا من المعركة:[4]

علـــى أثارنـــا بـــيض حســـان نحـــاذر أن تقســـم أو تهونـــا
ليســـتلبنى أفراســـاً وبيضـــاً وأســـرى فـــي الحديـــد مقرنينـــا
يقـــتن جيادنـــا ويقلـــن لســـتم بعولتنـــا إذا لـــم تمنعونـــا

وفى موقعة أحد اشتركت نساء قريش الوثنيات في المعركة لتشجيع المشتركين وجعلهن يضربن بالأكبار والدفاف والغرابيل في مقدمة صفوف المشركين ومعهن المكتحل والمراود ثم يرجعن

---

[1]- ابن الأثير – الكامل فى التاريخ – دار المعارف الجزء الأول ص ٢٩٠

[2]- السابق نفسه – ص ٢٩٠

٣- ابن الأثير –الكامل في التاريخ–ص٥٦٥

٤- ابن هشام – السيرة النبوية –دار المعارف– القاهرة ١٩٥٥ الجزء الثالث ص٧٢.

إلى مؤخرة الصفوف وجعلن كلما ولى رجل حرضنه وذكرنه قتلاهم ببدر وكانت هند بنت عتبة وصواحبها يحرضن ويزمرن الرجال ويقلن:[1]

نحـــــــــن بنـــــــــات طـــــــــارق
نمشـــــــــى علـــــــــى النمـــــــــارق
إن تقبلـــــــــوا نعـــــــــانق
وأن تـــــــــدبروا نفـــــــــارق
فـــــــــراق غيـــــــــر وامـــــــــق

ومما قالته أيضا:[2]

وبهـــــــــا عبـــــــــد الـــــــــدار
وبهـــــــــا حمـــــــــاة الأديـــــــــار
ضـــــــــربا بكـــــــــل بتـــــــــار

وعودة إلى الحرب في التراث العربي الجاهلي والشغف بالسيطرة والغلبة عن طريق الرغبة فقد ظلت هذه الروح الجاهلية مغروسة في قلب الجاهلي حتى جاء الإسلام فخمد أورارها – وغير مفاهيمها وتسامى بها ووظفها لخدمة القيم والفضائل.[3]

وعندما جاء الإسلام كان لابد وهو الدين الحق الذي اصطفاه الله منهاجاً للحياة أن يتخذ موقفاً من غريزة الصراع من أجل البقاء، فوظفها لخدمة الحق والانتصار لقضية العدل والتصدي للظالمين والطغاة، ولما كانت الأهواء هي المظهر الغالب للصراع البشري على اختلاف مراحل التاريخ، وجدنا أن الإسلام وضع لها تصورًا قويماً ورسم لها أطارًا كريماً، فذكر الباعث الإنساني للحرب، وحدد أخلاقياتها وأهدافها، وجعل باعثها الدفاع عن القيم وحراسة الفضائل وحماية العقيدة وإقرار الأمن، وذلك من منظور فلسفي اجتماعي في موضعين من كتاب الله عز وجل: أولهما في سورة البقرة بقوله تعالى: {... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} {البقرة ٢٥١}. والموضع الآخر في سورة الحج يقول تعالى: {.. وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ

[1]– ابن الأثير –الكامل في التاريخ–ص٥٧٢

[2]– المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها

[3]– السيد رزق الطويل الحرب في الإسلام مهمة إنسانية مجلة المنهل العدد ٥٥٠ صفر ١٤١٩ ص٦٣ .

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ {الحج ٤٠}، وفى هذه الآية تأكيد للمهمة الإنسانية للحرب في الإسلام، وأنها تستهدف حماية القيم الدينية ممثلة في صيانة الصوامع والبيع والمساجد وأنها تسموا إذا كانت منها الانتصار لدين الله وشريعته «وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». ومن هذا المنطق جاء الإذن للمسلمين بالقتال بعد أن استقر لهم المقام في المدينة بعد الهجرة، لأهداف محددة تتمثل في تأمين طريق الدعوة، والدفاع عنها، وردع البغاة والمعتدين.[١]

الاستمطار:

أشار عدد من الإخباريّين العرب إلى أنّ من بين "نيران العرب" قبل الإسلام ما يسمّى "نار الاستمطار" أو التسليع، إذ كانت العرب في جاهليّتها تأخذ حطب السَّلع والعُشَر في المجاعات وقحوط القطر فتوقر ظهور البقر منها، وقيل: يعلّقون ذلك في أذنابها، ثمّ تُلعج النّار فيه يستمطرون بلهب النّار المشبّه بسنا البرق، وقيل: يضرمون فيها النّار وهم يصعّدونها في الجبل فيُمطَرون، وتأدية هذا الطّقس الاستمطاريّ كانت مصحوبة بأهازيج منها المقطوعة الرجزية التّالية:[٢]

يا كَحْلُ قد أَثْقَلْتِ أَذْنابَ البَقَرْ
بِسَلَعٍ يُعْقَدُ فيها وعُشَرْ
فَهَلْ تَجودينَ بِبَرْقٍ وَمَطَرْ؟

وورد في السّيرة الحلبيّة:[٣] حديث وفد قبيلة خولان اليمنيّة أنّ هذا الطّقس كان شائعا قبيل الإسلام في كافّة أرجاء الجزيرة العربيّة بما فيها اليمن، فقد "وفد على رسول الله عشرة من خولان.. قال رسول الله: ما فعل عمّ أنس؟ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه. قالوا: بِشَرٍّ، بدّلنا الله تعالى ما جئت به، وقد بقيت منّا بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسّكون به، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى، فقد كنّا منه في غرور وفتنة. فقال لهم رسول الله: وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟ قالوا: لقد رأيتنا أسْنَتْنا [أصابنا القحط] حتّى أكلنا الرّمة [الجيفة]، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا مائة ثور ونحرناها لعمّ أنس قربانا في غداة واحدة، وتركناها تَرِدُها السّباع ونحن أحوج إليها من السّباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، لقد رأيت الغيث يواري الرّحال ويقول قائلنا: أنْعَمَ علينا عمّ أنس."...!

١- السيد رزق الطويل -الحرب في الإسلام مهمة إنسانية -ص٦٤ .

[٢]- ثناء، أنس الوجود - رمز الماء في الأدب العربي، مكتبة الشّباب، القاهرة ١٩٨٦ .

[٣]- نور الدّين، علّي بن برهان الدّين- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠ .ج ٣، ص ٢٧٤

كما احتفظ لنا الشّعر الجاهلّي بصورة لهذا الطّقس يوردها الجاحظ في الحيوان ممثّلة في القصيدة المشهورة لأمّية بن أبي الصّلت المتحفّ المزامن للنبّي:[1]

سَنَةٌ أَزْمَةٌ تَخَيَّلُ بِالنَّاسِ ... تَرَى لِلْعِضَاهِ فِيهَا صَرِيرَا

لاَ عَلَى كَوْكَبٍ يَنُوءُ وَلاَ رِيحِ ... جَنُوبٍ، وَلاَ تَرَى طُخْرُورَا

وَيَسُوقُونَ بَاقِرَ السَّهْلِ لِلطَّوْدِ ... مَهَازِيلَ، خَشْيَةً أَنْ تَبُورَا

عَاقِدِينَ النِّيرَانَ فِي ثُكَنِ الأَذْنَابِ ... مِنْهَا، لِكَيْ تَهِيجَ النُّحُورَا

فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِمْ ... ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صَبِيرٍ صَبِيرَا

فَرَآهَا الإِلَهُ تُرْشَمُ بِالقَطْرِ ... وَأَمْسَى جَنَابُهُمْ مَمْطُورَا

فَسَقَاهَا نَشَاصُهُ وَاكِفُ الغَيْثِ ... مِنْهُ إِذْ رَادَعُوهُ الكَبِيرَا

سَلَعٌ مَا، وَمِثْلُهُ عُشَرٌ مَا ... عَائِلٌ مَا، وَعَالَتِ البَيْقُورَا

كما يورد الجاحظ أيضا صورة أخرى لذات الطّقس للشّاعر الجاهلّي الورل الطائّي وإن من وجهة نظر دينّية مخالفة:[2]

لاَ دَرَّ دَرُّ رِجَالٍ خَابَ سَعْيُهُمُ ... يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الأَزْمَاتِ بِالعُشَرِ

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً ... ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللهِ وَالمَطَرِ؟

الاستمطار عند الجاهليين له طقوس ارتبطت بسحر المحاكاة، أو السّحر التّشاكلّي ففي تعريفه العاّم يقوم على محاكاة الإنسان موضوعات الطّبيعة، ومنها ما ذكره الميدانّي مثلا في إشارته إلى طقس سحرّي تشاكلّي طريف خاصّ بأّيام الجدب، فقد جاء عنده في تفسير المثل (تتابعي بقر):[3]
" زعموا أنّ بشر بن أبي خازم الأسدّي خرج في سنة أسْنَت [أصابهم القحط] فيها قومه وجهدوا. فمرّ بصوار من البقر، وإجْلٌ من الأروى [الماعز البريّ] فذعرت منه، فركبت جبلاً وعراً ليس له منفذ، فلّما نظر إليها قام على شعب من الجبل وأخرج قوسه، وجعل يشير إليها كأّنه يرميها فجعلت تلقي أنفسها فتكسّر. وجعل يقول:[4]

أَنْتَ الَّذِي تَصْنَعُ مَا لَمْ يُصْنَعِ

[1] - الجاحظ- الحيوان ج٣ ص٣٢٤

[2] الجاحظ- الحيوان-ج٣ص٣٥٤

[3] - الميداني- مجمع الامثال-ج١-ص١١٥

[4] -بشر-الديوان -ص٨٨

أُنــــ ــــــتَ حَطَطْـــــــــتَ مِـــ ـــــــنْ ذُرَى مُقَ نَّـــــــــعِ
كُــــــــــــلَّ شَــــــــــــبُ لَهَ ـــــــــــقٍ مُولَّ ـــــــــــع،

وجعل يقول: تتابعي بقر، تتابعي بقر. حتى تكّوت فخرج إلى قومه، فدعاهم إليها، فأصابوا من اللّحم ما انتعشوا به.

ومنها طقس التّسليع الذي يقوم على إيقاد النّار في أغصان أشجار السَّلَع والعَشَر إلى جانب شجر الشّبرق بحسب بعض المصادر، ا لأشجار الصّمغّية الموجودة بكثرة في وسط الجزيرة العربّية، وتتميّز بصغر حجم الأوراق واحتوائها على مادّة راتنجّية صمغّية، وثمار قطنّية تولّد عند إحراقها دخانا شديد الكثافة مكّون من حبيبات صغيرة من الهباب هي السّر كلّه في نجاح عملّية الاستمطار كما اثبتت العلوم الحديثة. ويبدو أنّ العرب كانت تعتقد أنّ هذه الأشجار كانت مسكنا للخوافي أي الجنّ، إذ نجد أنّ العرب كانت تضرب المثل في المكروه من الأشياء بقولها "كأنه شيطان الحماطة، وغول القفرة وجانّ العُشرة"، ومن هذا الباب قول الرّاجز:[1]

اَضَـــــلَدَتْ لِـــــي مِثْـــــلَ سَـــــعْلاةِ العُشَــــرْ ... تَـــــرُوحُ بِالوَيْـــــلِ وَتَغْـــــدُو بِـــــالغِيَر

وهو ما يعني أنّ استخدام العَشَر (مفرده العُشرة)، علاوة على توليده دخانا كثيفا بسبب مادّته القطنّية، قد يكون أيضا بهدف حرق مساكن الشّياطين/ الحيّات أي الكائنات التي ربّما كانت في اعتقاد الجاهلّيين أحد أسباب منع القطر. فالجانّ من أسماء الثّعابين، وهي زواحف كانت العرب تعتقد أنّها إحدى الصّور المفضّلة لظهور الجنّ.

وهذا الاعتقاد العربّي بخصوص البعد التّطهيريّ للدّخان، لا يخرج عمّا نجده في كثير من الحضارات، وهو ما يفسّر حرق البخور لطرد الأرواح الشّريرة عند العرب، كما عند غيرهم من شعوب الدّنيا، إذ البخور هو ما يرفع الصّلوات نحو السّماء رابطا الإنسان الفاني بالإله الخالد، فهو بمعنى من المعاني تمظهر لروح الإله مثله في ذلك مثل السّحاب. وهذا ما يفيده اشتقاق لفظي "البخور" و"البخار" في العربّية – وكلاهما دخان حين يحترق– من نفس الجذر "بخر". وهذا ما يفيده أيضا استخدام لفظ "التّدخين" بمعنى "التّبخير" في كتب الملل والنّحل العربّية في حديثها عن الاستخدام الطّقسّي للبخور عند مختلف الأمم والدّيانات.[2]

---

[1] – الجاحظ– الحيوان–١٥٧٥ص

٢– الشهرستاني– ابو الفتح محمد بن عبد الكريم– الملل والنحل– صححه وعلق عليه أحمد فتحي محمد–ط٢– دار الكتب العلمية بيروت– لبنان١٩٩٢م.

أمّا بخصوص الحيوان المضحّى به في هذا الطّقس الاستمطاريّ، فهو البقر حسب الرّواية الشّائعة، أي رمز الإله القمر عند العرب الغابرة، بحسب ما يجمع عليه دارسو الدّيانات العربيّة قبل الإسلام، وما يظهر من شعرهم المقدّس للثّور بوصفه ربّ الخصب (لوحة الثّور والكلاب خاصّة). ولعلّ هذا التّقديس هو ما يفسّر استقبالهم جهة المغرب أي مطلع القمر عند قيامهم بهذا الطّقس، وهو ما يشير إليه أبو علّي المرزوقي في قوله متحدّثا عن التّسليع: "وكانوا إذا فعلوا ذلك توجّهوا بها نحو المغرب من بين الجهات قصدا إلى العين، يعني عين السّماء.[1] وهو ما يفهم منه أنّ العرب كانت تعتقد أنّ القمر كان "عين السّماء" أي العين التي ينظر بها الإله إلى عباده/ عبّاده، وهو ما نظنّه مناط البيت السّادس من قصيدة أميّة بن أبي الصّلت المذكورة آنفا: (آها الإلهُ تَرْشُم بِالقَطْر).

فالاستمطار طقس سحري قائم على طلب السّقيا زمن القحط بحرق شجر السّلع المربوط في أذناب ثيران (أو جمال) تصعّد إلى قمّة جبل باتّجاه الغرب. أثبتتها الأسرار العلميّة لعمليّة نزول الماء من السّحب ودور الرّياح في ذلك التي لم تعرف إلاّ مع أواخر القرن التاسع عشر، حين تبيّن أنّ الرّياح بما تحمله من غبار هي العامل الرّئيس في هطول المطر (وليس تبخّر المياه على ما هو شائع عند عموم النّاس إلى حدّ الآن)، فإنّه من العجيب حقّا أن تثبت المعارف الحديثة صحّة الاعتقاد العربيّ القديم حول دور الدّخان في الحثّ على تكوّن السّحب في المرتفعات زمن فصل الشّتاء المتميّز بتكوّن منخفضات جويّة على المرتفعات والجبال، وأنّ قطيرات المطر لا يمكن لها أن تنشأ إلاّ بتركّزها على جزيئات صغيرة جدّا من الغبار. ولعلّه قريب من هذا، الاعتقاد قديما بأنّ الحروب تسبّب الأمطار، وهو ما تواصل في أوروبّا العصور الوسطى حين كان يعتقد أنّ قذائف المدافع تسبّب الأمطار أيضا. وهذا صحيح في قسم منه، لأنّ غبار المعارك وقذائف المدافع من شأنها تكثيف الغيوم ممّا يحفّز تكوّن حبيبات الماء، إذا ما صادف وجود منخفضات جوّية على ساحة المعارك[2]

ولهذا السّبب، اعتمد العرب إحراق السّلع والعُشَر دون غيرها من الأشجار في طقس التّسليع، لأنّ احتراق وريقاتها وما تحويه ثمارها من مادّة قطنيّة من شأنه توليد هباءات صغيرة جدّا تساعد على تركّز قطيرات الماء في الجوّ، وهو ما يمكّن من تفهّم إصرار الإخباريّين على أنّ طقس التّسليع كان من شأنه استنزال المطر، إذ تكرّرت عندهم في هذا الخصوص عبارة "فيمطرون لوقتهم"، وهو ما يتوافق مع ما أوردناه من تبرير، بل وفيه ردّ على كثير ممّن يرى في طقوس الاستمطار جملة،

١- المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، ج ٢، ص ٣٥٤
٢- ثناء، أنس الوجود، رمز الماء في الأدب العربيّ، ص٣٥

وعند كلّ الشّعوب، مجرّد ممارسات "لاعقلانّية" وخرافّية وأن لا رابطة سببّية بينها وبين هطول المطر الذي يعترفون بهطوله معظم الأحيان بعد أداء تلك الطّقوس.

وكمثال من بين كثير، نورد قول عالم النّفس الأمريكّي غلين ويلسون: "عندما تستثار رغبة أو حاجة ّما قوّية لدى فرد أو لدى مجتمع، وعندما تكون الوسائل المعقولة لتحقيقها غير متاحة، فإّنهما سيلجئان غالبا إلى الطّقوس السّحرّية كرقصات استحضار المطر... وعلى رغم أّن هذه الطّقوس لا تكون مؤثّرة على نحو مباشر، فإنّ ّها تساعد على رفع الـ حالة المعنوّية للأفراد المؤدّين لها، كما تطمئنهم بأّن كلّ ما هو ممكن إّنما يتّم أداؤه الآن... وفي معظم الأحوال تحدث النّتيجة المرجّوة ببساطة من خلال المصادفة. فمثلا عقب أداء رقص الغيث (أو رقص الاستسقاء) قد يحدث أن يهطل المطر فعلا. هنا يتّم إلصاق رابطة سببّية بطقس الّرقص هذا، وتقوم الّرابطة بتقوية التّسلسل الكلّي للحدث.[1]

إلاّ أّن الأهّم من هذا، هو الخلوص إلى أّن العرب استخدموا الّدخان في طقس التّسليع بغرض الاستمطار كضرب من السّحر التّشاكلّي اصطناعا لحالة شبيهة بتكّون السّحب في الجّو بفعل إشعال الّنار محاكاة لفعل "البرق" وما يصاحب ذلك من أهازيج تحاكي "الّرعد". إلاّ أّن هذا البعد السّحرّي لا ينفي وجود بعد تطهيرّي دينّي للّدخان، كما لا ينفي أيضا وجود بعد علمّي في استخدامه، بمعنى ارتباط الّنتائج بأسباب موضوعّية لا دخل للاعتقاد فيها.

وقد أشار عدد من الباحثين إلى أّنه "رّبما كان أكثر صور استخدام السّحر، ما يعرف بالسّحر التّشاكلّي... وذلك عن طريق التحكّم في الأحوال الجوّية لضمان توفير مقادير كافية من المطر. ومن هنا، فقد كان صانع المطر في القبائل البدائّية يعدّ من أهّم الشّخصّيات، فكانوا إذا أرادوا أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة سقوطه عن طريق رشّ الماء أو محاكاة عملّية تجّمع الغيوم والسّحب.[2]

فمن أهداف العمل السّحري- كما اسلفنا- التّحكّم في قوى الطّبيعة الخفّية والسّيطرة عليها، ومن ذلك ما كانت بعض الشّعوب تقوم به فجرًا لإعانة الشّمس على الشروق أو في أحوال الكسوف والخسوف، أو الطّقوس التي كانت تُؤدَّى لإيقاظ الأرض من سباتها الشّتائّي، ومن أمثلة ذلك أيضا

[1] - ويلسون، سيكولوجيّة فنون الأداء، ص ٦٣

[2] - ثناء، أنس الوجود، رمز الماء في الأدب العربّي، ص ٣٧.

التحكّم في المطر، وقد تحدّث ابن خلدون عمّن "يسحرون السّحاب كي يمطر الأرض المخصوصة. والملاحظ أن هذا الطّقس السّحري قديم عند العرب وعند غيرهم من الشعوب.

ولعلّ ما بقي في الشّعر العربي من استمطار السّماء والسّحاب ليمطر الأطلال والدّمن والقبور، شاهد على سالف علاقة بين الشعر والسّحر في أداء هذا الطّقس القديم: وهذا أمرٌ ذهب إليه بعض الباحثين فعلا في دراسة الصورة الشعرية من حيث صلتها بالشعائر الجاهلية القديمة في الدّين والسّحر فاعتبر أنّه نظرا إلى حاجة الإنسان، في المناطق الجافّة، إلى المطر فقد ارتبطت به ممارسات سحرّية شتّى، كما هي الحال في جميع بقاع العالم التي تعتمد حياتها عليه.[1]

والمطر يستنزل أيضاً بواسطة الكاهن أو الشّاعر – السّاحر بـرُقى السّحرة وتعازيمهم السحرية، وبنطق الاسماء الصحيحة، "فالأقوام البدائية كانت تعتقد أن للأسماء قوة سحرّية على المسّميات. ولكّنها لا تستطيع فعل ذلك إلاّ إذا كانت هي الأسماء الصحيحة، (صانع المطر)، يستطيع استنزال المطر بأن يقف في العراء متلفّظا بالأسماء الصّحيحة، فالسّاحر – الشّاعر – هذا الرّجل العجيب العميق، النّافذ العينين، المتّصل بكبد الحقيقة عن طريق اللّغة – يخرج إلى باطن الوادي ويرفع يديه وينطق ألفاظًا.. وإذا المطر ينهمر، أو لا ينهمر! وعلى كلّ حال فإنّ من واجبه أن ينهمر. وبين الأقوام البدائية كلّها والقبائل التي لم تعان بعدُ من بلّية الإحصاءات فإنّ الرأي السّائد هو أن الشاعر إذا تفّوه بالكلمات الصّحيحة انهمر المطر حقًا".[2]

والاستمطار مطلقاً تعبير عن رغبة ذات أصول سحرية تتعلق بالإحياء،[3] إحياء الارض القحط ومحو الجدب وذلك ما جعله يكثر في مقدمات المراثي، فقول امرئ القيس في وصف المطر:[4]

أعنـــي علـــى بـــرق أراه ومـــيض	يضـــيء حبيـــا فـــي شـــماريخ بـــيض
ويهـــدأ تـــارات ســـناه وتـــارة	ينـــوء كتعتـــاب الكســـير المهـــيض
وتخـــرج منـــه لامعـــات كأنهـــا	أكـــف تلقـــى الفـــوز عنـــد المفـــيض
قعـــدت لـــه وصـــحبتي بـــين ضـــارج	وبـــين تـــلاع يثلـــث فـــالعريض

[1]- البطل، علي- الصورة الفنية في الشعر العربي ص٢٢٩

[2]- المناعي-ص٨٠- من كتاب ماكس انستمن- الادب في عصر العلم- تعريب ابراهيم جبرا-المؤسسة العربية للدراسات والنشر١٩٨٣ص٤٩

[3]- المناعي- السحر والشعر-ص٧٧

[4]-امرؤ القيس- الديوان-تح محمد ابي الفضل ابراهيم-ط٣دار المعارف القاهرة ١٩٧٣ ص٧٢

أصـــــاب قطـــــاتين فســـــال لواهمـــــا فـــــوادي البـــــدي فـــــانتحى للأريـــــض
بـــــلاد عريضـــــة وأرض أريضـــــة مـــدافع غيـــث فـــي فضـــاء عـــريض
وأضـــحى يســـح المـــاء عـــن كـــل فيقـــة يحـــوز الضـــباب فـــي صفاصـــف بـــيض
فأســـقي بـــه اختـــي ضـــعيفة اذ نـــأت واذ بعـــد المـــزار غيـــر القـــريض

فهدف الشاعر محو الجدب وإزالة القحط، فهو يستنزل مطراً تلك اوصافه مفقوداً، على سبيل الرجاء والحلم لا الحقيقة.[1]

وتبدو الظاهرة نفسها بشكل اوضح عند كثير عزة في مقطع من اطول مقاطع وصف البرق والمطر يقول فيها:[2]

تضـــمّنه فـــرْشُ الجَبـــا فالَسَـــارِبُ أشـــاقكَ بـــرقٌ آخـــرَ الليـــلِ واصـــبُ
بفَرْقـــةَ حـــادٍ جَلْجَـــلَ الصَّـــوْتَ جالـــبُ يجـــرُّ ويســـتأني نشاصـــاً كأنَّـــه
أحـــمُّ الـــذُّرى ذو هيـــدبٍ متراكـــبُ تـــألّقَ واحمـــومى وخـــيَّم بـــالرُّبى
بـــلا هـــزَقٍ منـــه وأومـــضَ جاذِـــبُ إذا حرّكتـــه الـــريحُ أرزَم جانـــبٌ

الى ان يقول:

كمـــا كُـــلُّ ذي وُدٍّ لِمَـــنْ وَدَّ واهِـــبُ وهْبـــتُ لسُـــعدى مـــاءه ونَبَاتَـــه
وتغـــدِقَ أعـــدادٌ بـــه ومشـــارِبُ لـــروى بـــه ســـعدى ويـــروى محلُّهـــا

فالشاعر لا يصف سحاب يتخلله برق ويرصد حركته وتفاصيله آخر الليل فحسب، بل يفضي الى كلمة ذات قيمة بالغة فيما نحن بصدده وهي قوله: وهبت لسعدى ماءه ونباته، ويقول المناعي: فإذا كل مافي الأمر إنشاء يأتي به الشاعر من عزمه وإسقاء يصنعه ويوجهه الوجهة التي يريد، وهي عملية شبيهة بإجراءات السحر أيما شبه.[3]

ومما يجسم ظاهرة الاستسقاء في شعر الرثاء، في علاقتها بغاية الإحياء أو تهدئة روح الميت؛ قول الشاعر متمم بن نويرة في رثاءأخيه مالك:[4]

ســـقى الله أرضـــا حلهـــا قبـــر مالـــك ذهـــاب الغـــوادي المـــدجنات فأمرعـــا

---

[1]- المناعي- الشعر والسحر- ص٧٨

[2]- كثير عزة- الديوان -طبعة دار صادر بيروت ١٩٩٤م. ص٢٩-٣٠

[3]- المناعي- الشعر والسحر- ص٧٨

[4]- متمم اليربوعي- الديوان -ص ١٤

فـــــآثر ســـــيل الـــــواديين بديمـــــة ترشـــح وســـميا مـــن النبـــت خروعـــا
فمجتمـــع الأســـدام مـــن حـــول شـــارع فـــروى جبـــال القـــريتين فضـــلفعا
فـــوالله مـــا أســـقي الـــبلاد لحبهـــا ولكننـــي أســـقي الحبيـــب المودعـــا
تحيتـــه منـــي وإن كـــان نائيـــا وأمســـى ترابـــا فوقـــه الأرض بلقعـــا

فالشاعر دعا بالسقيا للارض التي حلها قبر اخيه، يقول المناعي ثم استخدم صيغة فريدة لا نعرفها في غير شعره، وهي الفعل "أسقي" للتعبير ان كونه هو صاحب الفعل أي منجز السقيا، وبرر الامر كله بحب أخيه لا بحب الارض، ماضياً في مزيد توجيه الماء الى الجسد الدفين–جسد اخيه– جاعلاً غايته القصوى ملتبسة بين التحية والإحياء عبر قوله تحيته مني.[1]

وكانت النتيجة التي انتهى إليها هؤلاء أن للقصيدة العربية جذوراً في المعتقدات الشعبية القديمة، فقد ظل (الشعر العربي يتمثل في وضوح حياة العرب وطوابعها الشعبية طوال عصوره)[2] المختلفة، من هذه الطوابع ما ذكره كارل بروكلمان[3] عن وظائف الشعر وكيف أنه كان ينشد لأغراض سحرية تساعد على تحمل مشاق العمل (الجني، الصيد). ولم يكن شعر الرجز بعيداً عن تلك الأغراض والممارسات المرتبطة بالأدعية والتعاويذ.

ومن خلال هذه الجزئية من الدراسة التي خصصت لدراسة سحر الشعر، نخلص إلى أن الشعر الجاهلي لم يكتف بتصوير المعتقدات السحرية أو ذات الأبعاد السحرية التي كانت تمارس في حياة الجاهليين بصورة كبيرة فحسب،، بل إنه كان يستخدم في غايات سحرية محضة، وبنفس الوسائل الأدوات التي يستخدمها الساحر حين يقوم بعمله السحري، فالشاعر الجاهلي يسحر عدوه ويعطل قواه بل يدمره بهجائه، ويرثي الموتى من حتى يطمئنوا في قبورهم، ويثير حمية المحاربين فيتدافعون إلى ساحات الموت، ويستمطر السماء فتمطر.

---

[1]– المناعي– الشعر والسحر– ص٧٩

[2]– شوقي ضيف: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، دار المعارف مصر ط٢، ١٩٨٤، ص٦.

٣–بروكلمان––تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف مصر ط١،١٩٥٩، ٤/ ٤٥.